الفصل السادس

في مجال التيارات الفكرية

obeikandl.com

obeikandl.com

١ ــ خواطر داعية حول ما يثيره أعداء الاسلام

(أ) يعانى العالم الاســـلامى اليوم من انقسامات فكرية حادة ؛ اذ يتنازعه تياران متطرفان :

أحدهما : تيار علمانى ؛ وهو يدعو الى بناء الحيـــاة على أســـس علمانية متحررة من كل قيود التقاليد والعادات الاجتماعية القديمة ، لأنها فى رأى أصحاب هـــذا التيار والداعين اليه من أكبر العوائق للتقدم والانطلاق نحو بناء حضارة تساعدنا على اللحـــاق بركب التقدم الذى تخلفنا فيه قرونا .

ثانيهما : تيار دينى .. وهو يعارض كل ما يتصل بالتقدم الحضارى، فأصحابه يرون أن : مظاهر الحضارة فى المجتمع ليست الا فسادا فى الأخلاق ، وتفككا فى الأسرة ، وتوهينا للعلاقات الاجتماعية . فالفرد فى المجتمع الحضارى الحديث يعيش لنفسه ، وينشد المنفعة الحسية لذاته ، لا يمنعه عنها دين ، ولا يحرمها عليـــه أخلاق ، فهو حر يفعل بنفسه ما يشـــاء فى اطـــار القوانين التى ســـنها نظـــام تنكر للآداب والفضيلة التى دعت اليها الأديان وصـــانها المجتمع بتقاليده القديمة .. ومن أجل هـــذا يرفضون الحضارة ، حتى لا تفسد الأخلاق ، وتمحو الدين من حياة المجتمع .

ويرفض كل جانب ما يراه الآخر أساسا للحياة فى العصر الحديث .

فالعلمانيون يهاجمون رجال الدين .. ويرجعون سبب التخلف الى آرائهم التى أعاقت حركة التقدم الحضارى .

ورجال الدين يرمون أصـــحاب التيار العلمانى بأنهم يدعون الى الفســـاد والفوضى الأخلاقية فى المجتمع .

ولن يجتمعا ما دام كل فريق ينظر الى آراء الآخر نظرة ارتياب وشك ، دون أن يمحصها ويقيمها ، ليصل الى المبادىء الأساسية فيها ، ويقارنها بما عنده من أصـــول ومبادىء عامة .

ولن تهـدأ نار العـداوة المتأججة بينهمـا ، مادام هنـاك من يمدها بالوقود .

فكتاب الغرب ـ المهتمون بشئون المناطق الاسلامية ، والذين يكتبون عن الاسلام ـ يغرسـون فى نفوس العلمانيين ، أن الاسـلام هو العقبة فى طريق التقدم الحضارى فى الشرق ، وأنه لن يستطيع التغلب على المشاكل الحضارية التى تواجهه اذا ما نحا المسلمون نحو حيـاة حضـارية .

كما يدفع سلوك عشاق تقليد ظواهر الحياة الأوروبية فى مجال الحرية الشخصية رجال الدين الى التصدى لكل ما يأتى من الغرب ، ومعارضته معارضة مطلقة دون تمييز بين ما يصلح وما يضر .

أوحى هـذا الوضع ـ أو على الأقل ، زرع الشك فى قلوب كثير من المسلمين ، وخاصـة من يتولون مراكز قيادية فى الدول الاسلامية ـ بأن الاسلام يرفض الحضارة الغربية وينكرها ، لأن ما فيها يهدد وجوده ، وينقض تعاليمه فى المجتمع ، أو يعجزه عن التغلب على ما تخلقه هـذه الحضارة من مشاكل للمسلم الذى يتمسـك بتعاليمه الدينيـة ، ومن ثم تتنازعه رغبتان :

رغبة الاستمتاع بما أنتجته الحضارة الغربية ..

ورغبة التمسك بتعاليم دينـه الذى يستولى على مشـاعره .. ويمتلك عواطفه .

وبين الشـد الى هـذا ، أو الجذب الى ذاك ، يسلك طريقا لا يقره دين ، ولا يتفق مع هدف الحضارة .

اذ يصبح الدين عنده عبادة جافة ، لا روح فيها ، وان دبت فيه ـ حينا ـ مشاعر دينية ، فليست الا ثورة عاطفية ، وحماسا وقتيا .

ويبدو سلوكه الحضارى ممسوخا ، فهو يقتفى مظاهر الحضارة السـلبية ، ويـجرى وراء مخلفاتها الفرعية التى تدمر الفرد أكثر مما تصلحه ، وتهدم كيان المجتمع بدل أن تسـاعد على تقويته وتماسكه .

● لقد بينت طبيعة التيارين المتنازعين فى العالم الاسلامى ، ووضحت الدوافع التى ساعدت على ظهورها على هذا النحو ، دون أن تشرح لى ما يجب عمله ، حتى تصحح أخطاء كلا الفريقين ؟

— هذا هو موضوع حديثنا المقبل ان شاء الله ..

* * *

(ب) بعد أن عرفت فى الحديث الماضى ، أن أصحاب التيارين الفكريين الرئيسيين فى العالم الاسلامى خاضعان لمؤثرات أبعدت كلا منهما عن الآخر ، أحب أن أبين لك نواحى غابت عن أذهان أولئك الذين يخوضون فى هذا المجال ان عمدا أو سهوا ، فلو عرفوها لقربت المسافة بينهما .

فلو أن الأوروبيين الذين كتبوا عن الاسلام وعلاقته بالتقدم الحضارى التزموا الجانب الايجابى فى البحث ، وتثبتوا من مصادر معلوماتهم ، ونفضوا عنهم كلية آثار العداوة القديمة ، لتبين لهم أنه لا يقف عقبة فى طريق التقدم ، بل يدعو اليه ، ذلك أن التقدم نوعان :

تقدم مادى ، وهو القائم على التفكير والعلم . والحضارة المادية قوامها العلم فى منهجه وتجاربه ومعالمه ومصانعه .. الخ . ولم يحرم الاسلام العلم ، بل دعا اليه ، وحث عليه .

وتقدم بشرى ، وهو وصول الانسان فى الخصائص الفكرية ، والوجدانية ، والسلوكية ، الى مرحلة أكثر تقدما من ذى قبل ، والاسلام كما يصوره القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الصحيحة عبارة عن جملة من المبادىء ، لو اعتقدها الانسان ، وآمن بها ، وطبقها فى حياته تطبيقا عمليا واضحا ، لسار فى نموه حتما الى المرحلة الأخيرة من الاكتمال الانسانى وهى مرحلة التقدم .

ولما كان التقدم المادى يحتاج الى ضوابط تضبط سلوكه وتكبح جماحه ، فلابد أن يصاحبه تقدم بشرى ، وهو ما عنى به الاسلام فى تعاليمه وأحكامه .

ولما كان الاسلام قد أباح التقدم المادى ، وأرسى قواعد التقدم البشرى ، فهو بهذا لا يعارض الحضارة الا فى جوانبها السلبية المدمرة لحياة الفرد والأمة •

فلو عرف العلمانيون هذا ، لأدركوا أن ما يقرأونه فى كتب الغربيين من تعارض بين التمسك بالاسلام ومباشرة الحياة الحضارية ، هو رأى خاطىء لا يصدر الا من جاهل بالتعاليم الاسلامية ، أو عدو للاسلام يريد أن يتنكر المسلمون لدينهم عن طريق الايحاء لهم بأنه لا يصلح للحياة العصرية •

ولو اهتم علماء الدين بدراسة الفكر الحضارى ، لأدركوا أن للحضارة ناحيتين :

أولاهما : ايجابية بناءة تخدم الانسان فى حياته ، وتساعده فى التغلب على مشاكل العصر •

وثانيتهما : سلبية مدمرة •

ولو عقلوا هذا ، لميزوا بين ما هو نافع فيقبلوه ، وما هو ضار فيرفضوه ، وبذلك يقطعون الطريق على أولئك الذين يأخذون رفضهم الكلى للحضارة دليلا على رفض الاسلام للتقدم ، لأن رفض رجال الدين المطلق ، أدى الى ظهور جبهتين ، اتخذتا هذا الرفض سلاحا تحارب به الاسلام :

الجبهة الأولى : المفكرون الغربيون الذين يكتبون عن الاسلام ، فهم يستندون الى موقف رجال الدين من قبول الحضارة الحديثة فى بيان أن الاسلام يرفض التقدم ، ويعارض كل ما أنتجته النهضة الحديثة ، وهو بهذا — هكذا يستنتجون — سبب من أسباب التخلف ، ومن الطبيعى أن يكون لهذا الرأى أثر كبير فى توجيه العلمانية فى العالم الاسلامى •

الجبهة الثانية : رجال الحكم فى العالم الاسلامى ، فهم ينهجون فى الدولة منهجا علمانيا ، لأنهم رأوا أن موقف رجال الدين من المتطلبات العصرية فى الدولة ، يعوق حركة التقدم •

ولهذا كله ، فان رجال الدين مطالبون اليوم بتحديد مفاهيم الحضارة والتقدم ، مع القيام بشرح القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية شرحا غير مقيد بعصر معين ، ولا يرتبط باتجاه خاص ، بل طبقا لروح الوحى ، وأهداف الرسالة السماوية التى أرادها الله لعباده .

وليست هذه المهمة من السهولة بمكان ، بحيث يستطيع القيام بها أفراد ، بل لابد من هيئات تتكاتف وتتساند فى انجازها ، والا فسوف تعصف بنا رياح العصر الى مجهول لا يعلم ما فيه الا الله سبحانه وتعالى .

وفق الله المسلمين الى ما فيه خير دينهم ودنياهم .. انه سميع مجيب .

* * *

(ج) يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول »[1] ..

ويروى المفسرون فى شرحهم لهذه الآيات :

أن جيش الحبشة قدم مكة لهدم الكعبة المشرفة ، بقيادة أبرهة الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ، ومعه الفيل ، فسلط الله عليهم طيرا جاءتهم من جهة السماء جماعات متتابعة ، بعضها فى اثر بعض ، هبت عليهم من كل اتجاه ، فرمتهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

غير أن بعض الباحثين يرى أن الذى أصاب جيش أبرهة ، انما هو وباء الجدرى تفشى بالجيش ، وبدأ يفتك به ، وكان فتكه ذريعا لم يعهد من قبل قط ، واعتمدوا فى ذلك على رواية لابن اسحاق وهى :

« حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث : أن أول ما رئيت الحصبة والجدرى ، بأرض العرب ذلك العام — أى عام الفيل — .. » .

---

(١) سورة الفيل .

وعلى رواية عن ابن عباس : « كان الحجر اذا وقع على أحدهم نفط جلده ، فكان ذلك أول الجدرى » ..

وعن عكرمة : « كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة ، فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى .. وكان أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب » ..

ويفسر أصحاب هـذا الرأى — معتمدين فى ذلك على جزء من الرواية .. وهو ظهور الجدرى ، متجاهلين الجزء الآخر ، وهو رمى الطير الحجارة على جيش أبرهة — ظاهرة الفتك بجيش أبرهة ، بأن جراثيم الجدرى جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى أبرهة نفسـه ، فأخذه ، الروع ، وأمر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلونه على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الوباء يزداد كل يوم شـدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب • وبلغ أبرهة صنعاء — وقد تناثر جسمه من المرض — فلم يقم الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشـه •

وهـذه الدعوى تشتمل على عنصرين :

أولهما : أن ما نزل بجيش أبرهة هو وباء الجدرى ..

والثانى : أن الريح حملت هـذا الوباء من ناحية البحر ..

والعنصر الثانى ليس صحيحا لسببين :

الأول : أن القرآن الكريم أخبرنا بأن الطير رمتهم بحجارة من سجيل ، فوقع لهم ما وقع •

والثانى : أن الريح اذا كانت قد هبت على المنطقة حاملة الوباء ، فلم أصـاب جيش أبرهة ولم يصب قريشـا مع أنهم كانوا فى مهب الريح أيضـا ؟

وما قيل من أن الأمراض التى ظهرت فى جيش أبرهة — من تسـاقط الجسم وظهور القيح والدم — هى أعراض الجدرى — لا يصلح دليلا على أن الريح هى التى حملت الوباء ، وليس الطير ، لأن مرض

الجدرى — اذا سلمنا بأنه هو الذى أصاب جيش أبرهة — ينتقل الى الشخص بالملامسة ، فالطير رمت الأحجار التى تحمل الوباء على الجيش، فانتقلت العدوى الى الشخص بمجرد أن مس الحجر جسمه ، ولما كانت قريش بعيدة عن مرمى أحجار الطير ، ولم تقترب من جيش أبرهة ، فقد سلمت من الوباء •

وبهذا يتبين أن من يذهب الى أن سبب هزيمة جيش أبرهة ، هو الجدرى فقط ، دون أن يبين مصدره ، أو يرجع مصدره الى الريح التى حملت الوباء دون ذكر الطير التى تحدث عنها القرآن الكريم ، فهو واحد من رجلين : ان كان غير مسلم ، فمصدر ثقافته عن الاسلام مؤسسات تربوية فى مجتمع يتخذ من الاسلام موقف المعارض أوالمناوىء ، أو اغفال كل ما يدل على أن القرآن الكريم من عند الله •

وان كان مسلما ، فهو يردد ما يقوله المستشرقون دون بحث أو تمحيص ، وذلك ما نقرؤه لبعض المعاصرين •

وفقنا الله الى الحق والصواب •• انه سميع مجيب •

* * *

(د) تنتشر اليوم فى المجتمعات الاسلامية نغمة ، تدعو الى عدم التعصب ضد أتباع الأديان الأخرى ، مع أن المسلمين لم يكونوا فى يوم من الأيام متعصبين بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لدى أصحاب هذه الدعوة ، ولا يقصد من هذا سوى توهين العلاقة بين المسلمين ودينهم ، وفصل المسلم عن عاداته وتقاليده الدينية ، تحت ستار مسايرة العصر ، والا كان رجعيا متخلفا ، ويعيش بعقلية القرون الوسطى ، وقد انزلق كثير من أرباب الفكر فى العالم الاسلامى فى هذا المجال ، فطفقوا يدعون الى التنازل عن الأفكار الدينية فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، ويستند المعتدلون منهم الى أن الظروف الدولية تستدعى منا أن ننهج هذا السبيل ، والا كنا شواذ فى المجتمع الدولى ، لا نستطيع أن نتحرك بحرية فنفشل وتضيع حقوقنا بين التيارات السياسية المعاصرة •

ويدللون على ذلك بأن الساسة العربيين — وهم مسيحيون — طرحوا مسألة الدين جانبا وتصرفوا — ولا زالوا — على أساس علمانى بحت .

ونسى هؤلاء أن تصريحات السياسيين العلنية فى تلك البلاد تختلف الى حد ما عما يرسمونه من خطط تهدف الى السيطرة — بل القضاء — على العقائد والمذاهب التى تقف عقبة فى سبيل ما يتخذونه عقيدة ومذهبا ، والا فهل يستطيع هؤلاء أن يفسروا لنا مغزى زيارة رؤساء الدول الكبرى للبابا ، ويبينوا لنا مضمون الأحاديث التى تدور بينه وبينهم فى الاجتماعات التى تستمر أحيانا وقتا طويلا ؟ .

وما هو السبب فى أن الأحزاب المسيحية لازال لها السيطرة فى معظم بلاد الغرب ولم تستطع الأحزاب الليبرالية أن تحرز نصرا فى مواجهتها ، الا بعد أن أظهرت عطفها على الكنيسة وتأييدها لها ؟ .

ومن الافتراء على الحقائق ما ترددده بعض أجهزة الاعلام فى الدول الاسلامية ، من أن قيام دولة فى هذا العصر على أساس دينى — كما هو الحال فى اسرائيل ، وكذلك الصراع الدينى بين الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا — من الأمور الاستثنائية ، لأن الصراع فى كثير من بقاع العالم يحمل — فى صور متعددة وأشكال مختلفة — طابعا أيديولوجيا — دينيا أو مذهبيا — ويظهر ذلك واضحا فى الأمثلة الآتية :

١ — اتفاق روسيا مع الهند على ضرب الجيش الباكستانى ، للقضاء على واحدة من أكبر الدول الاسلامية .

٢ — تجرى دماء المسلمين فى الفيلبين على يد القوات الحكومية ، دون أن تغطى وسائل الاعلام العالمية هذه الأحداث ، ولو كان ما يقتل أبناء دين من تدين به وسائل الاعلام العالمية لملئت الدنيا صياحا وعويلا .

٣ — محت روسيا معالم الاسلام فى المناطق التى احتلتها ، مثل طشقند وبخارى والقرم وغيرها ، فقد حولت مساجدها الى مسارح ، ويجرى الآن — بطريقة منظمة وشاملة — استئصال العقيدة الاسلامية

من الأجيال الناشئة ، وسوف ينقرض ما تبقى من الاسلام فى هذه المناطق بانقراض الجيل القديم ، ونفس الأسلوب يجرى فى ألبانيا — ومعظم سكانها مسلمون — ومع جميع الطوائف الاسلامية فى البلاد الشيوعية •

٤ — قضت العلمانية على الطابع الاسلامى فى تركيا التى كانت مركزا الخلافة الاسلامية فى القرون الماضية ، وصار الطابع الدينى فى البلاد التى نشأت فيها العلمانية أكثر ظهورا منه فى تركيا • ولا يوجد تفسير لهذه الظاهرة سوى تصميم المعسكر الغربى على محو كل مظاهر الاسلام فى تركيا •

٥ — تتسم الحرب الدائرة بين « أريتريا » والسلطات الأثيوبية بطابع دينى •

٦ — ذبح كثير من المسلمين فى احدى دول شرق افريقيا فى ستينات هذا القرن ، وكان الدافع الرئيسى لهذه المذابح نزعة عنصرية دينية •

٧ — عندما قامت حركة انفصالية فى احدى دول غرب افريقيا تلقت مساعدات من الفاتيكان ومن معظم الدول الأوروبية المسيحية ، لأن معظم سكان المنطقة التى أعلنت الانفصال مسيحيون ، ولم تخف وسائل الاعلام الغربية وجهها عندما كانت تدعو مواطنيها الى التبرع « للدولة المسيحية » الناشئة ، رغم أنها لم تكن سوى مجموعة تمردت على السلطة الشرعية ، كذلك اعترفت بعض الدول المسيحية فى افريقيا بدولة الانفصاليين •

وكان هناك الكثير من الأحداث العالمية التى تأخذ الطابع الدينى وتحركها وتوجهها عواطف العقيدة — دينا أو مذهبا — وتتلقى التأييد من ساسة الدول الأخرى على أساس علمانى بحت ، ولو رمت حصر ما يقع منها فى العالم لطال الحديث •

وينبغى ألا يفهم من هذا ، أن على زعماء الدول الاسلامية أن يكونوا جامدين فى تحركاتهم السياسية ، فيقطعوا كل صلة بتلك الأمم

التى تنهج هـذا السبيل ، بل عليهم ـ طبقا لما نفهمه من روح التشريع الاسلامى ـ أن يسايروا العصر فى مجال السياسة .

ولا يألوا جهدا فى بناء دولهم على أسس حديثة عصرية لتتقدم علميا وفنيا وعسكريا ، وفى الوقت نفسه لا يكونوا سذجا يتبرأون من الدين ، ويتنكرون لمن ينادى بالتمسك به بحجة أنهم تقدميون ، والا دارت عليهم الدائرة ، كما حدث لأمراء المسلمين فى الأندلس ، ولن يشفع لهم يومئذ كفرهم بكل ما يمت الى الاسلام بصلة .

وفقنا الله واياهم لما فيه خدمة الاسلام والمسلمين .

* * *

obeikandl.com

٢ ــ خواطر داعية حول القاديانية

(أ) تموج المجتمعات البشرية اليوم بظواهر فكرية متعددة المناهج والأساليب ، ومختلفة المناحى والاتجاهات ، ومتنوعة الأهداف والأغراض ، ويجيىء هــذا التباين طبقــا لاختلاف العوامل التى ساعدت على ظهور هــذه التيارات الفكرية ، فان من المســلم به فى قانون هــذا الكون أن كل حدث ــ سواءأكان وجودا أو عدما ــ لابدله من سبب ، سواءأكان هذا الحدث ماديا حسيا ، أم معنويا مجردا ، فكما أن نوع البذرة ، وعناصر عضوية التربة ، وطبيعة الطقس عوامل مؤثرة فى نوع النبات وتكوين براعمه وتحديد ثماره ، فان للظواهر الفكرية أيضا تربة ومناخا يــؤثر فيهــا فتتشــكل وتتــجــه طبقــا للعــوامل التى دفعت الى ظهورها وتكوينها •

ولهذا كان من أهم نقاط منهج المشتغلين بدراسة التيارات الفكرية ، هو البحث عن منابعها والكشف عن المؤثرات التى توجهها ، كى يستطيعوا مواجهتها ان كانت فى نظرهم ضارة بالمجتمع ، أو تدعيمها ان كان وجودها خيرا للفرد والأمة •

ذلك هو أسلوب المصلحين والداعين الى ســبيل الحق فى مواجهة التيارات الفكرية ، ومنهج القائمين على الدراسات الجامعية لتخريج دعاة قادرين على المواجهة ، أكفاء فى المحاورات والمساجلات الأيديولوجية ، لأن من لم يدرس التيارات الفكرية دراسة عميقة تحولت مواجهته لها الى مماحكات لفظية ، وشقشقات لغوية ، وأسلوب يدور فى فراغ ، فتكون النتيجة أن يتخذ عمله هــذا ســلاحا ضده ، وخنجرا يغمد فى قلبه ، فيصبح عمله وســيلة ضده لا له ، فتنتكس الدعوة الى الله ، ويكون سبب هــذا الانتكاس هم الدعاة أنفسهم من حيث لا يدرون •

ولهذا ينبغى البحث عن الأســباب التى أدت الى ظهور المذاهب والاتجاهات الدينية الهدامة حتى نستطيع مواجهتها والتصدى لهــا ، وســوف أتناولفى حديثى مذهبا له طابع خاص خرج به عن الدائرة

الاسلامية ، ألا وهو مذهب القاديانية ، فقد نهج مؤلفه منهج التلفيق بين العقائد الدينية المختلفة فخرج مذهبه من ذلك صورة مهلهلة لا هى اسلام، ولا مسيحية ، ولا براهمانية ، بل هى خليط من ذلك كله .

وقبل الحديث عن الأسباب التى دعته الى ذلك نروى جانبا عن حياة مؤسس هذا المذهب ، فهو ميرزا غلام أحمد ، ولد عام ١٨٣٩ فى آخر عهد حكومة السيخ فى بنجاب بالهنـد فى قرية قاديان التابعة لمديرية « كرداسپور » التى وقعت بعد التقسيم فى المنطقة الخاضعة لدولة الهند .

كان جده صاحب قرى وأملاك ، وصاحب امارة فى بنجاب ، ولكنه خسرها فى حرب دارت بينه وبين طائفة السيخ التى اسـتولت على البنجاب فى فجر القرن التاسع عشر .

تلقى غلام أحمد مبادىء العلوم ، فقرأ الكتب فى المنطق والحكمة والعلوم الدينية على أسـاتذة عصره ، وعرف الطب القديم من والده الذى كان طبيبا ماهرا .

ثم اشتغل فى دواوين الحكومة فترة ، استقال بعدها ، وشـارك والده فى أعماله .

أما عن معيشته ، فيروى أنه كان متقشفا فى حياته ، لأن دخله لم يكن كبيرا ، واسـتمر على ذلك حتى بـدأ دعوته فاتسـع له العيش وأقبلت عليـه الدنيا ، وقد ذكر ذلك بنفسه حين قال :

« اننى لم أكن آمل — نظرا الى حياتى وامكانيتها — أن يحصل لى عشر روبيات شهريا ، ولكن الله الذى يرفع الفقراء من الحضيض ، ويرغم المتكبرين قد أخذ بيدى ، وأنا أؤكد أن ما جاءنى من الموارد ، ومن الاعلانات ، والتبرعات الى هذا الوقت — وكان ذلك فى عام ١٩٠٧ — لا يقل عن ثلثمائة ألف روبية ، وربما يزيد على ذلك » .

هـذه كانت حياته ، تعليم متوسط ، وفقر مدقع ، يعقبه غنى فاحش من المساعدات التى يأخذها من أتباعه .

أما عن طبيعة دعوته فسوف نبينها فى حديث قادم .. ان شاء الله.

* * *

(ب) أحدثت القاديانية فى المجتمع الاسـلامى بدعا لم تكن موجودة من قبل ، فاعتنقت مبادىء لا يقرها المسلمون ، لأنها لا تتفق مع مبادىء الاسـلام ، وأخص بالذكر منها ثلاثة مبادىء رئيسية وهى : ادعاء ميرزا غلام أحمد أنه المسيح الموعود ..

وابطاله الجهاد فى سبيل الله ..

وادعاؤه النبـوة ..

أما ادعاؤه بأنه المسيح الموعود ، فقد ظهر اثر اقتراح قدمه له صديقه الحكيم نور الدين ، اذ اقترح عليـه أن يظهر فى مظهر المسيح ، ويدعى أنه هو المسيح الذى أخبرت النصوص الدينية بنزوله ، وسرعان ما تلقف ميرزا هـذا الاقتراح ، ونفذه ، فادعى بأنه المسيح الموعود ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « ان المسلمين والنصارى يعتقدون باختلاف يسير أن المسيح ابن مريم قد رفع الى السماء بجسده العنصرى ، وأنه سينزل من السـماء فى عصر من العصور ، وقد أثبت فى كتابى — يعنى كتابه « فتح الاسلام » — أنها عقيدة خاطئة ، وقد شرحت أنه ليس المراد من النزول هو نزول المسيح ، بل هو اعلام على طريق الاستعارة بقدوم مثل المسيح ، وان هـذا العاجز — يعنى نفسـه — هو مصداق هـذا الخبر حسب الاعلام والالهام » .

ثم بدأ يفسر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى عليه السلام على نحو يجعل الأوصاف الواردة فيها مطابقة لأوصافه ، فعلى سبيل المثال ، جاء فى الأحاديث أن المسيح ينزل فى دمشق عند المنارة ، وعليـه رداءان أصفران ، فبنى منارة فى قاديان ، ليبرر تفسيره للحديث ، وادعى أن قاديان مشابهة لدمشق ، ثم يقول : « فأنزلنى الله لأمر عظيم فى دمشق هـذه — يعنى قاديان — بطرف شرقى عند المنارة البيضاء من المسـجد الذى من دخله كان آمنا ، فتبارك الله الذى أنزلنى هذا المقام » .

أما الرداءان الأصفران فقد قال فيهما : « جاء فى الحديث أن المسيح ينزل عليـه رداءان أصفران ، وهـذا شأنى ، فانى أعانى علتين : احداهما فى مقدم جسمى ، وهو الدوار الشديد الذى قد أخر به على الأرض .

والعلة الثانية فى أسفل الجسم : وهى كثرة البول ، والذين يرفضوننى يؤمنون بأن المسيح يحمل هذه الآية من السماء ، وهى علتان ، احداهما فى مقدم الجسم والأخرى فى مؤخره » ••

وبدعواه أنه المسيح الموعود يكون قد خرج عن اجماع المسلمين ؛ وهو أمر يخرجه عن دائرة الاسلام أراد أن يتقرب به الى الاستعمار ؛ وبهذا يكون مذهبه قد نحا نحوا خرج به عن طريق الاسلام •

أما الاتجاه الثانى : فكان نتيجة لادعائه أنه المسيح الموعود ، ويتمثل هذا الاتجاه فى تحريمه الجهاد فى سبيل الله ، وقد نص على ذلك صراحة حين قال : « لقد ألغى الجهاد فى عصر المسيح الموعود الغاء باتاً » ••

وقال فى خطبته الالهامية : « لقد آن أن تفتح أبواب السماء ، وقد عطل الجهاد فى الأرض ، وتوقفت الحروب ، كما جاء فى الأحاديث أن الجهاد للدين يحرم فى عصر المسيح فيحرم الجهاد من هذا اليوم ، وكل من يرفع السيف للدين ، ويقتل الكفار باسم الغزو والجهاد يكون عاصيا لله ولرسوله » ••

ويقول فى « ترياق القلوب »:« ان الفرقة الاسلامية التى قلدنى الله امامتها وسيادتها تمتاز بأنها لا ترى الجهاد بالسيف ولا تنتظر ، بل ان الفرقة المباركة لا تستحل ذلك ، سرا كان أو علانية ، وتحرمه تحريما باتاً » ••

وبهذا الفهم أمدت القاديانية الحكومة الانجليزية بخير جواسيس لمصالحها وأصدقاء أوفياء متطوعين متحمسين كانوا موضع ثقة الحكومة الانجليزية ، وبذلك تكون خالفت نصا من نصوص القرآن الكريم وهو قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن**

يفعله منكم فقد ضل سـواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم أعـداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون »[1] ..

أما ادعاؤه النبوة فسوف نتناوله فى الحديث القادم ان شاء الله ..

* * *

(ج) خرجت القاديانية عن اجماع المسلمين ، فأصبحت بذلك مذهبا غير اسلامى ، والدليل على ذلك دعواها التى لا يوافقها عليها مسلم ، وهى :

ماجاءوا به من التفسير المبتدع — « ختم النبوة » ، فقد خالفوا فيه تفسـير جميع المسـلمين ، اذ ما زال المسـلمون يعتقدون منـذ ثلاثة عشر قرنا — ولا يزالون حتى اليوم — أن سـيدنا محمد ﷺ هو خاتم النبيين ؛ فلا نبى ولا رسـول بعده الى يوم القيامة ، وهذا هو المعنى المفهوم من قوله تعـالى : **« ما كان محمـد أبا أحد من رجالكم ولكن رسـول الله وخاتم النبيين »**[2] ..

أما القاديانيون فقد فسروا خاتم النبيين — لأول مرة فى تاريخ المسلمين — بأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء ، أى طابعهم ، فكل نبى يظهر الآن بعده تكون نبوته مطبوعا عليها بخاتم تصديقه ﷺ ، وهاكم بعض نصوصهم التى توضح هذا الرأى عندهم ، فقد قال زعيمهم :

« ان المراد بخاتم النبيين أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة أى نبى من الأنبياء الا بخاتمه (ﷺ) ، وكما أن كل قرطاس لا يكون مصدقا الا حين يطبع عليـه الخاتم ، فكذلك كل نبوة لا تكون مطبوعا عليهـا بخاتمه وتصديقه (ﷺ) تكون غير صحيحة » .

ويقول فى موضع آخر : « لا ننكر أن الرسـول (ﷺ) هو خاتم النبيين ، ولكن الختم ليس المراد به ما يفهمه السـواد الأعظم من الناس ، اذ هو يخالف كل المخالفة عظمة الرسـول (ﷺ) ، وجلالة شـأنه ، وعلو منزلته ، ذلك أن معناه أن النبـى (ﷺ) قد حرم أمته من نعمة النبـوة العظمى ..

---

(١) الممتحنة : ١ ، ٢ (٢) الأحزاب : ٤٠

وانما المراد به (ﷺ) خاتم الأنبياء ، أى طابعهم ، فلا نبى الآن الا من يصدقه هو (ﷺ) وبهذا المعنى نؤمن بأن الرسول الكريم (ﷺ) هو خاتم النبيين » ..

ويفهم من هذه النصوص أنه يرى أن باب النبوة مفتوح ، وذلك ليتسنى له ادعاء النبوة وقد أفصح عن ذلك بقوله :

« الخاتم هو الطابع ، فاذا كان النبى الكريم طابعا ، فكيف يكون طابعا اذا لم يكن فى أمته نبى » ؟ .. وهكذا فتح ميرزا غلام أحمد القادياني باب النبوة ، ليمهد الطريق للخطوة التالية ، ألا وهى ادعاؤه النبوة ، وقد صرح بذلك فى قوله : « أنا نبى وفقا لأمر الله ، وأكون آثما ان أنكرت ذلك ، واذا كان هو الذى يسمينى بالنبى فكيف لى أن أنكر ذلك ، اننى سأقوم بهذا الأمر ، حتى أمضى عن هذه الدنيا » ..

وقد كتب هذا قبل موته بثلاثة أيام فقط ، أى أنه لم يرجع قبل موته عن هذه الدعوى الكاذبة ، التى خرج بها عن الاسلام .

وقد تمادى أتباعه فى هذا الغى ، فاعتقدوا بأن من لم يؤمن بنبوة ميرزا غلام أحمد كافر ، ويستدل على ذلك من صريح عبارتهم حيث يقولون :

« ان جميع المسلمين الذين لم يشتركوا فى مبايعة المسيح الموعود كافرون ، خارجون عن دائرة الاسلام ، ولو كانوا لم يسمعوا باسم المسيح الموعود ..

كل رجل يؤمن بموسى ولا يؤمن بعيسى ، أو يؤمن بعيسى ولا يؤمن بمحمد ، أو يؤمن بمحمدولا يؤمن بالمسيح الموعود ، فما هو بكافرفحسب، بل هو راسخ فى الكفر ، وخارج عن دائرة الاسلام » .

ولا يقتصر القاديانيون على قولهم بأنهم مخالفون للمسلمين فى أمر نبوة ميرزا علام أحمد ، بل هم يقولون أيضا بأنه ليس هناك من شىء يجمع بينهم وبين المسلمين ، فربهم غير رب المسلمين ، واسلامهم غير اسلامهم ، وقرآنهم غير قرآنهم ، وصلاتهم غير صلاتهم ، وصومهم غير صومهم .. وغير ذلك كثير مما يخالفون فيه المسلمين .

وقد أدى هـذا الخلاف بينهم وبين المسلمين الى النتيجة النهائية المنطقية ، ألا وهى قطع صلاتهم بالمسلمين ، حيث نظموا أنفسهم تنظيما مستقلا عنهم ، كجماعة لا صلة لها بالمسلمين على الاطلاق ، ويشهد بذلك أحكامهم التى منها أنه لا يجوز للقاديانى أن يصلى خلف رجل لا يعتنق مذهب القاديانية .

ومن هـذا يتبين أن القاديانية مذهب خارج عن الاسلام ، فلا يجوز لهم أن يمثلوا المسلمين فى أى محفل من المحافل ، ولا ينبغى لهم أن يدعوا أنهم طائفة اسلامية ، لأنهم قطعوا كل الوشائج التى تربطهم بالاسلام .

● ولكن ما هى الأسباب التى دفعت ميرزا غلام أحمد الى هذا الطريق ؟

— ذلك سوف نتناوله فى الحديث القادم ان شاء الله ..

* * *

(د) لم تستطع القوة العسكرية الاستعمارية أن تحرز نصرا عسكريا شاملا على المقاومة الاسلامية اذ لم تتمكن من القضاء التام عليها ، وظل نشاط هـذه المقاومة مسموعا ومرئيا فى مناطق العالم الاسلامى ، وان فتر أحيانا تحت ضغط التفوق العسكرى للمستعمر ، فانها كانت دائما شوكة فى جنب المستعمر ، لا تدعه يهدأ ، أو يغمض عينيه ، مما جعله يعتقد اعتقادا جازما بأن القوة العسكرية ليست هى الوسيلة الوحيدة لاخضاع العالم الاسلامى ، فأيدى اهتماما أكثر بنواحى أخرى ، تؤدى الى اضعاف المصدر الذى يدفع المسلمين الى مقامة الأجنبى ، ألا وهو الدين .. وسلك للوصول الى هذا الهدف مسالك متعددة .

أولها : الدراسات الاستشراقية : التى كان الغرض من انشائها وتدعيمها استخدامها كوسيلة لحماية المستعمر عن طريق تهيئة نفوس المسلمين لقبول النفوذ الأجنبى والرضا بولايته ، ولهذا نزع المستشرقون فى دراستهم للاسلام الى اضعاف القيم الاسلامية ، ليضعفوا فى المسلم تمسكه بالاسلام ، ويبعثوا فى نفسه الشك فيه كدين ، وليوهموه أن الاسلام لم يعد منهجا سلوكيا يتفق وطبيعة الحياة المعاصرة .

ثانيها : انشاء المدارس الأجنبية : اذ عندما أدرك المستعمر أن الدراسات الاستشراقية فى المجتمع الاسلامى لم تؤد الغرض المطلوب منها كما تصوره ، عمد الى انشـــاء مدارس فى المجتمعات الاسلامية ، لتعلم أبناء المسلمين ثقافة الاستعمار ، وتلقنهم الفكر الأجنبى ، وتعدهم اعدادا عاليا ، لتولى مقاليد الأمور فى بلادهم ، وهم بحكم تشربهم الثقافة الأجنبية فى هـــذه المدارس ، سوف يتبنون منهجه فى التعليم والثقافة ، وفى أسلوب الحكم والسياسة ، وبذلك يكونون خير ممثل للاستعمار ، ينفذون ما عجز هو عن تنفيذه ، بطريق مباشر •

ثالثها : خلفاء الاستعمار : ذلك أن المستعمر عندما أيقن أن قواته سترحل يوما ما عن منطقة العالم الاسلامى ، لجأ الى خلق طبقة من المسلمين تتبنى آراءه ، وتدافع عنها ، وتتولى تنفيذ ما عجز هو عن تنفيذه، وقد تضافرت عدة جهات على تكوين عقلية هذه الطبقة ، وتغذيتها بالآراء والأفكار التى ينبغى أن تنادى بهـــا فى العالم الاســـلامى ، اذ غرس المستشرقون فى أذهانهم عـــدم امكانية تطبيق بعض النظم الاســـلامية فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وفى مجالات العلوم المختلفـــة فى الحيـــاة المعاصرة •

كما علمتهم المدارس الأجنبية التى أنشأها الاستعمار فى العالم الاسلامى نظريات فى التاريخ ، والعلوم الاجتماعية ، تدور كلها حول مفاهيم تدفع الطالب الى الاعتقاد بأن العصر لم يعد صالحا لتطبيق تعاليم الاسلام فى مجالات الحكم والتوجيه •

وعن طريق هؤلاء امتد نفوذ الأفكار الاستعمارية فى جميع مؤسسات المجتمع الاسلامى ، فأصبح من النادر وجود مؤسسة سياسية تلتزم خطا اسلاميا بعيدا عن تأثير القوى الأجنبية ، سواء أكان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر ، لأن نفوذ تلك القوى تغلغل فى جميع المؤسسات فى العـــالم الاسلامى ، حتى المؤسسات الدينية ، اذ دخل فى كثير منها ليوجهها — من وراء الستار — الى طريق فيه اضعاف العقيدة ، وتفكيك الوحـــدة

الاسلامية ، وقد وضح هـذا الدور فى القاديانية ، فقد كان ميرزا غلام أحمد ـ مؤسس هـذه الطائفة ـ خاضعا للانجليز خضوعا كليا ، فقام بدور فى المجال الدينى يخدم مصالحهم ، دور لم يستطيعوا القيام به ، اذ لم يكن فى استطاعتهم تبنى دعوة تحريم الجهاد فى وقت كان المسلمون فى أشـد الحاجة اليـه لدفع غارة الاستعمار عن بلادهم ، ولم يكن وضعهم يسمح بتبنى مزج المسيحية بالاسلام ، كما دعا الى ذلك ميرزا غلام أحمد ، ولهذا كانوا له سـندا ، وكان هو خادمهم ينفذ لهم ما عجزوا هم عن تنفيذه ، وقد عبر بنفسه صراحة عن هـذا الدور حين قال : « لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتها ، وقد ألفت فى منع الجهاد ، ووجوب طاعة أولى الأمر ـ ويعنى بهم الانجليز ـ من الكتب والاعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها الى بعض لملأ خمسين خزانة . وقد نشرت جميع هـذه الكتب فى البلاد العربية ، وتركيا ، وكان هدفى دائمـا أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحى من قلوبهم قصص المهدى المسفاك ، والمسيح السفاح ، والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد وتفسد قلوب الحمقى » .

وقال فى آخر كتابه « شـهادة القرآن » :

« ان عقيدتى التى أكررها أن الاسلام جزئين : الجزء الأول : اطاعة الله ، والجزء الثانى : اطاعة الحكومة التى بسطت الأمن وآوتنا فى ظلها من الظالمين ، وهى الحكومة البريطانية » .

ويقول فى رسالة قدمها الى نائب حاكم المقاطعة عام ١٨٩٠ :

« لقد ظللت منـذ حداثة سنى ـ وقد ناهزت اليوم الستين ـ أجاهد بلسانى وقلمى ، لأصرف قلوب المسلمين الى الاخلاص للحكومة الانجليزية ، والنصح لها والعطف عليها ، وألغى فكرة الجهاد التى يدين بها جهالهم ، والتى تمنعهم من الاخلاص لهذه الحكومة ، وأرى أن كتاباتى قد أثرت فى قلوب المسلمين ، وأحدثت تحولا فى مئات الآلاف منهم » ..

وهكذا يبدو واضحا أن الانجليز هم الذين دفعوا ميرزا غلام أحمد

الى اعتناق مثل هـذه المبـادىء المخالفة للاسـلام والدعوة الى الله والترويج لهـا •

ونكتفى بهـذا القدر اليوم على أن نواصل الحديث عن أسباب ظهور القاديانية فى حديث قادم ان شاء الله •

* * *

(ه) بينا فى حديث سـابق طرفا من آراء ومعتقدات القاديانية ، ووضحنا جانبا من الدوافع التى دفعت ميرزا غلام أحمد الى اعتناق هذه الآراء وترويجها والدفاع عنها •

واليـوم نواصل معا الكشف عما وراء هـذه الظاهرة الفكرية ، وسوف أقصر حديثى على جانبين فقط •

أولهما : ادعاؤه بأنه المسيح المنتظر •

وثانيهما : ادعاؤه النبـوة •

مبينا المؤثرات التى كان يقع تحتها ، والظروف التى أثرت فى فكره ودفعته الى اعتناق هذين المبدأين ، ولكى تتضح الصورة أمامنا ، ينبغى أن نلقى نظرة على الأفكار التى كانت موجودة فى عصره ، وكان لهـا تأثيرها فى توجيهه فكريا ، وأخص بالذكر تيارين فكريين رئيسيين وهما :

الدين الهندوسى ، وعقيدة رجعة المسيح عليـه السلام •

أما ما تأثر به الدين الهندوسى ، فهو أنه دين لا يعرف له مؤسس واحد ، ولهذا يعتقد الهندوس أنه يظهر فى كل زمان حكماء وأناس تحـل فيهم الروح الالهيـة ليجددوا الرسـالة ويقوموا بنشرها ، ومما لا شك فيه أن المعالم الفكرية للعصور المختلفة وجدت طريقها الى الدين الهندوسى عن طريق هؤلاء الحكماء ، فالمفكر ابن عصره ، مهما بولغ فى عزله عن المنابع الفكرية غير الدينية ، كما يتأثر نسبيا بتعاليم الأديان الأخرى ، ان سمحت الظروف بوصولها اليه ، سـواء أكان عن طريق الدراسة لاشباع رغبة عنده ، أو المجادلة مع بنى وطنه •

وطبقا لهذا ، فقد ظهرت حركات اصلاحية ، حاولت مزج التعاليم الهندوسية بتعاليم الأديان الأخرى مثل حركة « براهما سماجا » وحركة

« الربانيون » فى الهنـــد الحديثة ، كما حاول بعض المسلمين المنحرفين مزج بعض تعاليم الهندوسية بالأســـلام ، مثل « كبير » الذى دعا الى مذهب مزج فيه بين الهندوسية والاســـلام ، فآمن بتناسخ الأرواح ، وقانون الجزاء الأخروى ، والايمان بأن محبة الله هى الطريق الوحيد للخلاص كما أخذ عن الاســـلام تحريم عبادة الأصنام .

ومثل « جلال الدين أكبر » .. و « جورونانك » مؤسس جماعة السيخ ، وهى طائفة مزجت تعاليم الاسلام بتعاليم الهندوسية .

وكان لهذه الظاهرة الهندية — ظاهرة التلفيق والمزج بين الأديان المختلفة لنسج دين أو مذهب جديد — أثر كبير على ميرزا غلام أحمد ، فادعى أنه نبى أتى ليجدد رسالة الاســـلام ، وكانت هـــذه الدعوى رد فعل لتأثره بما عند الهندوسية من الاعتقاد بأنه يظهر فى كل زمان زعماء مصلحون حلت فيهم الروح الالهية لتجديد الرسالة .

أما التيار الآخر الذى تأثر به ميرزا غلام أحمد فهو عقيدة رجعة المسيح ، فهى عقيدة يؤمن بها جمهور أهل السنة استنادا الى ما ورد فى الكتاب والسنة ، أما فى الكتاب فقول الله تعالى : **« وأن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته »**[1] ..

فأرجعوا الضمير فى « به » و « موته » الى عيسى ، والمعنى ما من أحد من أهل الكتاب يهوديهم ونصرانييهم الا ليؤمن بعيسى قبل موته .

وأما فى الحديث ، فقول رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المـــال حتى لا يقبله أحد » .

استغل ميرزا غلام أحمد هذه العقيدة ، فادعى أنه المسيح الموعود ، وقد عبر عن ذلك مرارا وتكرارا فى كتبه ، وفى خطبه ، فهو يقول فى احدى هـــذه الخطب :

« أيها الناس .. اذا كنتم أصحاب ايمان ودين ، فاحمدوا الله

---

(١) النساء : ١٥٩

واسجدوا له شكرا ، ان العصر الذى قضى آباؤكم حياتهم فى انتظاره ولم يدركوه ، وتشوقت اليه أرواح ولم تسعد به ، قد حل وأدركتموه ، واليكم وحدكم ان تقدروا هذه النعمة ، وتنتهزوا هذه الفرصة ، سأكرر ذلك ، ولا أفتا أذكره •• اننى ذلك الرجل الذى أرسل لاصلاح الحق ، ليقيم هذا الدين فى القلوب من جديد •• انى لى شبها بفطرة المسيح ليدك العقيدة الصليبية ، فقد أرسلت لكسر الصليب وقتل الخنازير » •

وكان الانجليز وراء هـذه الدعوة ؛ اذ كان غرضهم أن يؤمن الناس به ويلتفوا حوله ، فيكون زمام الأمر بأيديهم — أى بأيدى الانجليز — لأنهم سوف يملون على زعيم المسلمين الروحى — لو آمن الناس بصدق ادعائه بأنه المسيح — ما يريدون •• وبذلك تتحقق سيطرتهم على المسلمين ، اذ بعد ما فشلت محاولة الاستعمار فى ابعاد المسلمين عن الاسلام سلك أسلوب تبنى الحركات الاسلامية — بل هو الذى دفع بعض الأشخاص الى انشائها — ليوجهها نحو الهدف الذى يريده ، وكانت القاديانية هى احدى هـذه الحركات التى تبناها الانجليز ، وأوعزوا الى مؤسسها ليدعو الى مزج الاسلام بالمسيحية ، كى تضعف مقاومة المسلمين للمستعمر المسيحى ، فوجد ميرزا فى عقيدة رجعة عيسى عليه السلام خطوة أولى على هـذا الطريق ، ثم حاول مزج الاسلام بالمسيحية فى تعاليمه ، ودفعه الى ذلك أيضا ما شـاهده فى الدين الهندوسى من مزج للآراء المختلفة المصادر ، فسار على هـذا الدرب مقلدا وللانجليز معاونا •

ولو لم توجد عقيدة رجعة عيسى عليه السلام عند المسلمين ما ادعى ميرزا غلام أحمد بأنه المسيح ، ولو لم ينشأ قريبا من المجتمع الهندوسى ما حاول مزج الاسلام بالمسيحية ؛ ولو لم يوجد الاستعمار الانجليزى فى الهند ما نحا ميرزا غلام أحمد فى دعوته نحو هـذا الاتجاه لتأويل النصوص الاسلامية تأويلا متعسفا ، ارضاء للاستعمار •

ونكتفى بهـذا القـدر عن القاديانية ، راجين من الله أن يحفظ المسلمين من الوقوع فى ضلالتها •• انه سميع مجيب •

* * *

٣ — فى مواجهة الشيوعية

(أ) يموج العالم الاسلامى اليوم بتيارات فكرية ، متعددة فى الاتجاهات ، ومختلفة فى الأهداف ، ومتنافرة فى المنهج والمضمون ، ويتساءل المسلم المعاصر ازاء هذا الاضطراب عن أسباب هذا التناحر الفكرى ، والتطاحن المذهبى ، والتعصب الممقوت لهذا التيار أو لذاك الاتجاه ، فلا يسمع جوابا شافيا ، ولا يرى ملامح عمل يقوده الى حيث الاستقرار النفسى ، أو يهديه الى طريق يضمن له مستقبلا سعيدا ، مع احتفاظه بتعاليم دينه .

● وما علة هذا الداء الذى أصيب به العالم الاسلامى ؟ .

— علته أن المجتمع الاسلامى — فى جميع أقاليمه — قطع طريقا طويلا ، امتد أكثر من مائة سنة ، تجاذبته فيها تيارات أقضت مضاجعه ، فلم تترك له فرصة البناء والتعمير وأهلكت أعصابه ، فلم يعد يقوى على التفكير بموضوعية فيما يعرض عليه من « أيديولوجيات » ولم يستطع الاحتفاظ بما عنده من عقائد وعبادات ، فتهاون فيها وأهملها ، أو أولها فألغاها أو أداها عادة وتقليدا ، فصارت :

صورة لا حياة فيها ، ومصدرا للرزق والتكسب ، لا عقيدة يدافع عنها بالروح والمال ، ووسيلة يخدع الحكام شعوبهم بالتظاهر بها ، لا منارة يسير على هديها رجال السلطة ، وأسلوبا يختفى وراءه الدجالون والمنافقون . ولباسا يرتديه الماركسيون ليدنسوه كى يمزق الحكام ما بقى من خيوطه ، فتقتلع الجذور الباقية ، فلا يجرؤ أحد على الجهر بالدعوة .

● لقد ذكرت فى كلامك قضايا تحتاج الى توضيح ، فهلا تفضلت بالاجابة على هذه الأسئلة لتتضح هذه القضايا فى ذهن السامع .. ولنبدأ بالسؤال الأول : كيف يرتدى الماركسيون لباس الدين فى المجتمع الاسلامى ؟ .

— قبل أن أبين لك هذا ، ينبغى أن تعرف تاريخ علاقة الماركسيين

بالعالم الاســـلامى فمن خلاله تســـتطيع أن تتصور تكتيك السوفييت وأساليبهم مع المســـلمين •

● ومن أين نبـــدأ ؟ •

ـــ نبـــدأ من ٧٤ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أى بعد مرور أقل من شهرين على وقوع الانقلاب الذى جاء بالبلشفيين فى روســـيا الى الحكم •

● وماذا حدث فى هـــذا اليوم ؟ •

ـــ وجهت الحكومة السوفييتية نداءها الرسمى الأول الى كل العمال المسلمين رسمت فيه الخطوط العريضة لموقف الماركسيين تجاه الشرق ••

● كيف كان ذلك ؟

ـــ أخذت موسكو شعارات القومية التى انتشرت آنذاك فى الشرق بعد انهيار الخلافة الاسلامية فى تركيا ، فصاغتها فى صورة نداءات للتحريض ضد الاستعمار الغربى فى العالم الاسلامى •

● وماذا قالت لهم ؟

ـــ كان مما قالته لهم فى هـــذا النداء حرفيا : « لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين ، وان الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين • يا مسلمو روسيا ، يا من خربت مساجدكم ، وهدمت بيوت عبادتكم •• نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية ، وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ، ستصبح ابتداء من اليوم مصونة ولن تمتد اليها يد آثمة ، أقيموا حياتكم القومية فى جو من الحرية دون أن يعوقها عائق فلكم الحق فى ذلك » ••

● يبدو من هـــذ أنهم لم يحاربوا الاسلام داخل روسيا !

ـــ لا تتسرع فى الحكم !! ، فهذا جزء من مخطط رسمه الماركسيون ليمهدوا الطريق فى العالم الاســـلامى أمام مبادئهم الالحادية ، ولن يدرك الســـامع هدفهم الا اذا عرف بقية الأحداث ••

● ومتى سنسمع ذلك ؟

— فى الأسبوع القادم ان شاء الله ..

* * *

(ب) لقد استمعت أيها الأخ الكريم فى الأسبوع الماضى الى ما قاله الماركسيون للمسلمين داخل الاتحاد السوفييتى بعد استيلائهم على الحكم فى روسيا ، ولم يقتصر نداءهم الأول على مخاطبة المسلمين داخل حدود روسيا ، بل تعداه الى توجيه نداءات الى المسلمين خارجها ، ومما جاء فيها :

« يا مسلمو الشرق : يا ايرانيون ، يا أتراك ، يا عرب ، يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوروبا التجارة قرونا بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم ، يا من قسم هؤلاء المغتصبون دياركم .. نعلن لكم : ان معاهدة القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية . ان معاهدة تقسيم ايران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستسحب القوات الروسية من ايران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر » ...

● وماذا كان رد فعل هذا البيان فى العالم الاسلامى ؟

— تجاوبت أصداؤه فى العالم الاسلامى ، وأحدث رجع صوته دويا فى أرجاء المنطقة الاسلامية ، فتزايدت أصوات التهليل له فى تركيا وايران ، ووصفه البعض بأنه وثيقة الحرية الكبرى . وبدا لهم وكأنه مبادىء أساسية لعمل مشترك بين روسيا البلشفية والمسلمين الذين يئنون تحت وطأة المغتصبين الأجانب ، ويشربون كأس عبودية الاستعمار الغربى ، كما خيل للمسلمين أن الظروف أصبحت ملائمة لتوحيد الجهود ضد المستعمر ، فأثر ذلك فى الفكر الاسلامى تأثيرا كبيراً ، وظهرت معالمه فى كثير من أوجه النشاط الفكرية والسياسية .

● وما هى الخطوة التالية التى اتخذتها موسكو فى هذا الاتجاه ؟

— كونت فى يناير سنة ١٩١٨ لجنة مركزية اسلامية أطلق عليها « المجلس الأعلى للشئون الاسلامية » واهتمت الحكومة السوفييتية اهتماما خاصا بها ، فمنحتها الحماية ودعمتها ماليا ، وكانت مهمة هذه اللجنة فى بادىء الأمر محصورة فى رعاية شئون المسلمين داخل حدود الاتحاد السوفييتى ، ولكن سمح لها فيما بعد بتوسيع دائرة اختصاصاتها لتشمل المسلمين فى أرمينية ، فأصبحت مسئولة عن تيسير شئون المسلمين فى هذه المنطقة وبهذا تدخلت هيئة سوفييتية لأول مرة فى شئون اقليم يقع خارج حدود الاتحاد السوفييتى ثم دعت هذه اللجنة الى عقد مؤتمر فى ديسمبر سنة ١٩١٨ ، وكان الهدف الأساسى من وراء عقده أن تتوصل الدعاية السوفييتية الى انشاء تنظيمات ، وهى ما يطلق عليه خلايا شيوعية فى العالم الاسلامى ، ففى أثناء انعقاد المؤتمر تكونت « رابطة تحرير الشرق » وصيغ برنامج عمل لها فى مذكرة تحت عنوان « الشرق والثورة » . وقد دار الحديث فى هذه المذكرة حول توضيح منهجى للسياسة السوفييتية فى الهند وايران والعالم العربى .

● وما مدى نجاح هذه الرابطة فى العالم الاسلامى ؟

— هذا ما سوف نتحدث عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ج) وقفنا فى الأسبوع الماضى عند سؤالك عن مدى نجاح « رابطة تحرير الشرق » التى كونها الشيوعيون فى المؤتمر الذى عقد فى ديسمبر ١٩١٨ ، ولكى يقف كل مسلم على تحركات الشيوعيين فى العالم الاسلامى ، ينبغى عليه أن يعى هذه الأحداث :

دب النشاط فى هذه الرابطة ، فأسست فى سنة ١٩٢٠ مدرسة عليا فى طشقند لتدريب الطلائع الثورية فى العالم الاسلامى . ففى هذه المدرسة يدرب حملة سياسة البلشفيين بكل ما يحتاجونه للقيام

بالثورات ، كما يتعلمون كل لغات الشرق ، ثم يرسلون الى كل اتجاهات ومراكز المناطق الغربية فى آسيا ، كى يضعوا أسس ترابط السوفييت مع الشعوب التى دبت فيها حركة الثورة .

وفى خريف العام نفسه — أى سنة ١٩٢٠ — كانت مرحلة وعود السوفييت — التى تحدثنا عن بعضها فى البيان الرسمى الأول — قد انقضت ، ثم بدأوا تنفيذ مخططاتهم فى العالم الاسلامى ، اذ دعت الحكومة السوفييتية الى عقد مؤتمر عالمى لشعوب الشرق فى باكو ، ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٥٠ عضوا من كل بلاد العالم الاسلامى ولبى الدعوة ١٨٠٠ عضوا . وفى أثناء انعقاد المؤتمر فطن الأعضاء الى المناورات السوفييتية .

● وما هى هذه المناورات ؟

— كانت مناوراتهم عديدة .. أذكر لك مثلا منها : أرادوا انتزاع الموافقة من المؤتمر على أن الشيوعية تشبه الاسلام ..

● من أى وجه ؟

— قالوا : بما أن الاسلام يدعو الى المساواة بين أتباعه ويؤاخى بينهم ، والشيوعية من مبادائها أن يرتبط كل المؤمنين بها برباط واحد ، وهم يدعون أيضا الى المساواة فى توزيع الثروة ، فكلاهما يشترك فى هذين المبدأين : الاخوة والمساواة ..

● وماذا كان هدفهم من هذا ؟ .

— كان هدفهم احتواء الحركات الاسلامية توطئة للسيطرة عليها ، حتى لا تقف فيما بعد فى وجه انتشار الأيديولوجية الشيوعية فى العالم الاسلامى .

● وماذا كان موقف المؤتمرين ؟

— رفضوا هذا الاقتراح رفضا مطلقا ، لكنهم انقسموا الى فريقين ازاء اقتراح ربط الحركات الثورية فى العالم الاسلامى بالحركة الشيوعية ، فقد رأى الفريق الشيوعى منهم أن التمهيد للثورات

الوطنية فى الشرق الاســـلامى يمثل مرحلة على الطريق الى الثورة الاشتراكية • أما الفريق الآخر فقد رحب باعتراف السوفييت بالثورات الوطنية وتأييدهم لحركات التحرر فى الشرق ، وفيما عدا هــذا ، رأى أنه يجب أن تبتعد الثورات الوطنية عن الأفكار الثورية الاشتراكية التى تطبقها روســيا داخل أقاليمها ، بمعنى أن الروس فى نظر هذا الفريق ليس الا مساعدا لهم ضد الاستعمار ، وما عدا هــذا فلا ينبغى لهم أن يطلبوا الاعتراف بمبادئهم ، أو السير فى فلكهم فى مقابل هذه المساعدة •

● وماذا كان أثر موقف هــذا الفريق على الســياسة البلشفية فى الشرق ؟

ــ كان له أثر بعيد المدى ، ذلك أنه جمدها ، وأعاقها عن الوصول الى أهدافها الأصلية التى أرادها الشيوعيون يوم أن ولوا وجوههم شطر الشرق لاشــعال الثورة فيه •

● وهل تعلم الماركسيون من هــذا الدرس ، فأدركوا أن لا مجال لهم فى أرض العالم الاســلامى ؟ •

ــ المعروف أنهم لم ييأسوا من الفشل ، فحاولوا مرة أخرى ، ولكن مع تعديل فى أسلوب تحركهم ••

● وماذا كان أسلوبهم الجديد ؟

ــ كان أسلوب المســاعدات •• وعقــد المعاهدات مع الحكومات الاســلامية •

● وهل أوصلهم هــذا الأسلوب الى نتيجة ؟

ــ ذلك ما سنتحدث عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(د) لقد تبين لنا فى الأسبوع المــاضى أن الماركسيين عندما فشلت محاولتهم فى احتواء الحركات الاســلامية ، اتجهوا الى أسلوب تقديم المســاعدات للحكومات الاســلامية ، محاولين عن طريقها بث الدعاية البلشفية فى كل اقليم قدمت له مساعدة سوفييتية ، ومحاولة استخدامها

للوصول الى أغراضهم ، وسوف نعرض أولا جانبا من تحركاتهم فى أفغانستان وايران وتركيا وهى الأقاليم الاسلامية المتاخمة لحدود الاتحاد السوفييتى .

أما فى أفغانستان فقد هزت الدعاية الشيوعية موقف الأمير حبيب الله ، عندما أشاعت بأنه آلة فى يد الساسة البريطانيين اشتروه بثمن بخس ، ثم أمدت روسيا عملاءها الشيوعيين بالمساعدات المادية ، فأسسوا حركة الاستقلال الوطنى الأفغانية ، وظهر على رأسها أخو الأمير ، ولم يمض وقت طويل حتى اغتيل الأمير ، فملك أصدقاء الروس زمام الأمور وتدفقت الأسلحة الى داخل البلاد .

وبعد أن أعلن استقلال أفغانستان وقيام المملكة الأفغانية ، وتوقيع المعاهدة الأفغانية الانجليزية فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ — تلك المعاهدة التى نصت على انهاء الوصاية الانجليزية على أفغانستان — بعد توقيع هذه المعاهدة سارعت روسيا باصدار بيان قالت فيه :

« ان مجلس الوزراء السوفييتى يعلن : أن حكومة العمال والفلاحين بكل هيئاتها تعترف باستقلال أفغانستان ، وأن على أفغانستان المستقلة ابتداء من الآن واجب التحالف مع روسيا ، لمساعدة شعوب الشرق الاسلامى التى لا زالت ترزح تحت نير العبودية فتنال حريتها الوطنية والاجتماعية » .

● أسمع نغمة غريبة فى هذا البيان !!

— نعم .. تبدو فيه نغمة الثورة الاشتراكية التى تحاول موسكو أن تلزم الحكومات الجديدة فى المنطقة المستقلة حديثا باتباع النموذج المطبق فى موسكو ، وأن تحذو حذو البلشفيين فى روسيا ، أى اتخاذ موسكو كعبة لها فى الاصلاح السياسى والاجتماعى .

● وهل نجح هذا الأسلوب مع أفغانستان ؟

— نجح فى بادىء الأمر نجاحا محدودا ، ولكن لم ييأس الشيوعيون من تعثر انتشار مبادئهم ، فثابروا واستمروا فى مخططاتهم حتى قاموا بالانقلاب الأخير .

● وضح لى مدى النجاح المحدود الذى حصلت عليه موسكو فى بادىء الأمر ؟

ــ أعنى بالنجاح المحدود : أن ما نادت به موسكو من تحالف مع أفغانستان أصبح أمرا واقعا فى فبراير ١٩٢١ ، اذ وقعت معاهدة الصداقة الروسية الأفغانية فى ذلك التاريخ ، ومما يلفت النظر أنه نص فيها على انشاء خمس قنصليات لروسيا فى أفغانستان ، بجانب سفارتها فى كابول ، ولا شك أن المقصود من وراء انشاء هذا العدد من القنصليات هو تطوير وتركيز النفوذ السوفييتى الذى يسهل عملية نشر العقائد الماركسية ، ولكن لم تصل الى هذا الهدف ، كما أنها لم تحقق هدفها الحقيقى ، وهو قيام الثورة الاشتراكية ، وذلك بسبب معارضة الحكومة ، تلك المعارضة التى كانت من العوامل الأساسية فى سد الطريق أمام الدعاية الشيوعية ، حتى لا تنفذ الأقاليم الأفغانية ، فانحصر نشاط الشيوعيين فى العاصمة كابول .

● ولكن كيف تمكن الشيوعيون من الوصول الى الحكم بعد ذلك ؟

ــ هذا هو موضوع حديثنا فى الأسبوع القادم ان شاء الله ..

* * *

(هـ) لعلك تنتظر الآن الرد على سؤالك الذى طرحته فى الأسبوع الماضى ، عن كيفية تمكن الشيوعيين من الوصول الى الحكم فى أفغانستان على الرغم من وقوف الحكومة فى وجه دعاتهم حتى لا ينتشروا فى الأقاليم ، فاعلم أن معارضة الحكومات فى العالم الاسلامى للأيديولوجية الماركسية لم تكن هى العقبة الوحيدة أمام انتشارها ، بل هناك ما هو أهم منها ، ألا وهو موقف الماركسيين من الدين ، ذلك أنهم ينكرون الأديان فلا يعترفون بوجود الله ، وتلك هى العقبة الرئيسية أمام تقبل المسلمين للأفكار الماركسية .

● وكيف تغلبوا عليها ؟

ــ أوهموا العامة بأن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، ثم ركزوا فى دعايتهم على مبدأ العدالة فى توزيع الثروة ، وتلك مسألة تلقى رواجا

كبيرا فى كثير من مناطق العالم الاســـلامى حيث توجد فوارق طبقية كبيرة ، كما اعتنوا بالتجمعات البشرية ، كالعمال فى المصانع والموظفين فى النقابات ، فان صادفوا قطرا لا توجد فيه تجمعات عمالية أعروا الحكم بانشـــاء صناعات ، كى تهيأ الظروف لتجمعات عمالية ، وفوق هذا كله فهم منظمون تنظيما دقيقا •• والمعروف أن كل جماعة تعرف هدفها وتنظم نفسها تنظيما يتفق مع متطلبات هذا الهدف وتصـــل اليه ان عاجلا أو آجلا ، بصرف النظر عن قيمة هذا الهدف ومكانته فى حياة الأمـــة أو الجَماعة ، كان هـــذا هو أسلوبهم فى أفغانستان : تنظيم الصفوف تنظيما دقيقا ومحاولة نشر أفكارهم بين العمال والطبقات الفقيرة ، وايهام العامة بأن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، والتركيز بين هذه الطبقـــات على مبدأ العـــدالة فى توزيع الثروة ، واغراء العناصر ذات التطلعات بأن أهدافهم فى الوصول الى المراكز العليا سوف تتحقق فى ظـــل سيادة الأفكار الاشتراكية ، ولذا ينبغى العمل على نشرها وسيطرتهـــا على المجتمع • وساعدهم أيضا فى تحقيق أغراضهم غفلة المسلمين عما يدور حولهم ، وعدم ادراكهم الخطر الذى يمكن أن يحيق بهم لو استمروا سلبيين ازاء النشـــاط الشيوعى •

وأذكر أن وفدا أفغانيا على مستوى عال زار المملكة العربية السعودية فى أوائل عام ١٩٧٨ ، وأقيم له احتفال فى المعهد العالى للدعوة الاسلامية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، وكان لى شرف القاء كلمة للترحيب بهم حذرتهم فيها ـــ آنذاك ـــ من الدسائس التى تحاك فى بلدهم لتحويلها الى الشيوعية ، فانفجرت مناقشات حادة على اثر هذه الكلمة اشترك فيها أعضاء الوفد ، كما أسهم فيها لفيف من طلبة المعهد من الجنسيات المختلفة ، وكانت الغالبية العظمى تـــرى أن دولة أفغانستان فى مأمن من الشيوعية لأن الســـلام ـــ هكذا صرح أعضاء الوفد وأيدهم كثيرون ـــ فيها بخير ، والحكومة لا تألوا جهدا فى مطاردة الشيوعيين والقضاء عليهم ، وليس لهم أى نفوذ على الاطلاق •• و •• الخ •• ولم يمض على هذه المناقشة سوى فترة وجيزة،

الا وقام الانقلاب الشيوعى فى أفغانستان ، فهرع الى بعض الدين عارضونى فى أثناء زيارة الوفد — طلابا وأساتذة — يعربون لى عن اعجابهم بما تنبأت به . فأفهمتهم أنى لم أتنبأ ، لأن خبر السماء قد انقطع بعد محمد ﷺ ، ولكنها استنتاجات من ظواهر متعددة تبدو على مسرح الأحداث العالمية ، لا تحتاج الى قوة خارقة ، بل الى اهتمام بما يجرى فى العالم ، ويجب على المسلمين أن يهتموا باللعبة السياسية والاقتصادية بين الدول ، لأن لها ارتباطا وثيقا بأديان ومذاهب اللاعبين .. والا عندما يفاجأون بانقلاب فى قطر من أقطار العالم الاسلامى ، أو يشاهدون تحولا فى المجتمع ، فغروا أفواههم ، ورددت ألسنتهم كلاما أقرب الى ما نقرؤه فى الأساطير منه الى تحليل الواقع واستنتاج ما يترتب عليه من أحداث .

● لقد طال بنا الحديث عن نشاط الشيوعيين فى أفغانستان .. ولم تذكر لى شيئا عن نشاطهم فى ايران ؟ .

— سوف نتحدث عن ذلك فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(و) أين وقفنا فى الأسبوع الماضى ؟

● عند وعدك بالحديث عن نشاط الشيوعيين فى ايران ..

— نعم .. فاعلم أن السوفييت اعتبروا المنطقة الفارسية ذات أهمية بالغة ، باعتبارها من الناحية الجغرافية مركز العالم الاسلامى فى غرب آسيا ، فهى تهم روسيا بنوع خاص لأن حدودها معها تمتد مسافة كبيرة . ولهذا حاولت روسيا بعد أن بلشفت منطقة بخارى أن تطوى هذه الدولة أيضا عن طريق مساعدة الجيش الأحمر للحكومة ضد انجلترا ، وقد قوبل دخول هذا الجيش بالترحيب فى بادىء الأمر ، لأنهم اعتبروه حليفا ومساعدا لهم على التخلص من الاستعمار ، ولكن عندما لاح فى الأفق أن هذه القوة المسلحة تحاول اشعال نار الثورة الاشتراكية — أى بلشفة ايران — انتشرت معارضة هذا الاتجاه وازدادت مقاومته ، فاضطرت الدعاية السوفييتية الى مراجعة مخططها ،

وتبين لها أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهـذه الخطة ، وقد عبرت صحيفة أزفستيا عن ذلك قائلة : « ان من الخطأ أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشـتراكية ، فايس فى فارس عمال مصانع ، بل هو بلد زراعى متخلف ، ولا ينبغى أن نحاول القيام بثورة هنـاك ، لأن الظروف لم تتهيأ بعد ، ولم يوجد المناخ الذى يسـاعد على نجاح الثورة » .

هـذا هو أسلوب الشيوعيون فى كل بلد ، يختفون تحت الشعارات الوطنية ؛ ثم يحاولون الوصـول الى هدفهم عن طريق اشـعال نار الثـورة ، مستخدمين القوات المسـلحة ووسائل الاعلام ، والتجمعات العمالية ، فاذا لم ينجحوا تراجعوا لمراجعة خططهم ، واعداد العـدة لمحاولة جديدة .

ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم اذا فشلوا فى منطقة ، يئسوا من النجاح فيها ، وصرفوا النظر عنها .. لا .. انهم يحاولون المرة بعد الأخرى ، بأساليب مختلفة ، وطرق شتى متخفين وراء وجوه جديدة على المجتمع ، ويرتكبوا كل شىء يوصلهم الى هدفهم ، حتى ولو وصل الأمر الى الكفر بمبادئهم ومهاجمتها علنـا ، فى بعض المواقف ان كان ذلك سيوصلهم الى هدفهم ، فالغاية عندهم تبرر الوسـيلة .

اكتفت موسكو بعد هزيمتها أمام الثوار الايرانيين بتقديم المساعدات الدبلوماسية والأدبية والمـادية لهم ، وكانت تأمل أن يتحول المجتمع الاسـلامى فى ايران عن طريق المساعدات الدبلوماسية والأدبيـة والمـالية لهم ، الى اعتناق الأيديولوجية الشيوعية ، لتضمن بقاءه فى فلك الجبهة الماركسية الى الأبد ، ولكنها لم تصل الى هـذا الهدف على الرغم من أنها حاولت — بعد أن عقدت معاهدة صـداقة مع الحكومة الايرانية — أن تتجاوز موقف المساعد فى المسائل السياسية والعسكرية ، لأن المقاومة ضد الأفكار التى خرجت من موسكو نمت بسرعة واشتدت ، فتعقبت الحكومة كل المحاولات اليسارية التى تسـاعد أصدقاء البلشفيين على القيام بثورة بأسلوب لا هوادة فيه ، وكادت احـدى هذه المحاولات

أن تنجح فى الخمسينات ، لولا أن قيض الله لها رجالا قضوا عليهـا قبل أن يستفحل أمرها .

● وهل استسلم الشيوعيون بعد القضاء على هـذه المحاولة ؟

— لا لم يستسلموا ، فلهم فى الداخل تنظيم سرى يقوم بعمليات تخريب واغتيال ، وفى الخارج يحاولون تجميع الطلاب الايرانيين الذين يدرسون فى البـلاد الأوروبية حولهم ويلقنونهم المبادىء الماركسية ، ويعلمونهم أساليب الدعاية التى تساعد على اعداد الرأى العام الايرانى لتقبل قيام ثورة اشتراكية .

● ألا تعتقد أن ثورة الخومينى الدينية قضت على آمالهم ؟ .

— لا .. لأنهم يحاولون الآن خلق المتاعب لها على الصعيدين : الدولى والمحلى ليجهضوها ، فاذا تم ذلك قفزوا الى مراكز السلطة ، ويومها لن تأخذهم شفقة ولا رحمة فى القضاء على كل من لا يؤمن بعقيدتهم ، والى اللقـاء فى الأسـبوع القادم لنتحدث عن نشاطهم فى تركيـا .

* * *

(ز) تواعدنا فى الأسبوع الماضى على تخصيص حديث اليـوم عن نشـاط الشيوعيين فى تركيا ..

● هل يختلف أسلوبهم فى تركيا عن أسلوبهم فى ايران ؟

— لا .. لم يختلف نشاطهم فى تركيا كثيرا عن الطابع الذى ميز تحركاتهم فى ايران ، ذلك أن السياسة السوفييتية بدت فى سيعها لتوطيد العلاقة مع تركيا ، وكأنها تسـير نحو نفس الهدف الذى سعت موسكو لتحقيقه فى ايران ، فقد اتخذت نفس الطريق ، وسلكت نفس الأسلوب : صـداقة ، فتقديم مساعدات ، فعقد معاهدة ، فمحاولة لقيـام ثورة اشتراكية : ففى صيف عام ١٩٢٠ زار أنور باشا موسكو للتفاوض مع الشيوعيين بشأن تقديم مساعدة روسية لدولة تركيا الحديثة . ثم كتب عن نجاح هـذه الرحلة التى أطلق عليهـا بعضهم « رحلة الحج الى موسكو » ما يلى :

« لقد توجت هـذه الرحلة الى موسكو بنجاح لم نكن ننتظره ،

اذ تعمقت جذور الصداقة بيننا وبين روسيا ، فالمدافع التى عبئت بالذخيرة ، توشك أن تطلق من تلقاء نفسها ، ومعنى هذا نهاية سلطة الاستعمار الانجليزى ، وحق للعالم الاسلامى ، أن يرفع رأسه معتمدا على روسيا ، كى يتخلص من العبودية الاستعمارية » .

● ثم ماذا حدث ؟

— وصلت الصداقة السوفييتية التركية فى عام ١٩٢٠ الى الحد الذى عرضت فيه موسكو على كمال أتاتورك — وكان يحارب فى جبهات متعددة لتأمين قيام تركيا الحديثة — أن ترسل له قوات روسية لمساعدته .

● وهل وافق كمال أتاتورك على ذلك ؟

— بالطبع رفض هذا .. لأنه يعلم أنها وسيلة لوضع أقدامهم فى تركيا ، لكن الاتصال زاد بين الدولتين ، وتعمقت صلة الترابط بينهما بواسطة المعاهدة التى عقدت فى مارس سنة ١٩٢١ ، والتى قررت مصير أرمينية بتقسيمها بين تركيا وروسيا .

● اذا لم تخنى الذاكرة فلقد ذكرت لى فى بدء مناقشاتنا أن روسيا تعهدت فى بيانها الأول الذى أذاعته بعد قيام الثورة البلشفية بأن تكفل حرية شعب أرمينية فى تقرير مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر ، وتقول الآن انها عقدت معاهدة بين تركيا وبينها نص فيها على تقسيم أرمينية بين روسيا وتركيا .. أليس هذا مناقضا للبيان الأول ؟ .

— نعم..هو مناقض..وبين لك أيضا طبيعة السياسة الشيوعية ، تعدك بأن تقف فى صفك لتنال حريتك ممن سلبوها ، ثم بعد أن تتخلص ، تفرض سيطرتها عليك ، وهذا ما حدث فى كثير من مناطق العالم ، ساعدتهم على التخلص من الاستعمار ، ثم جثمت على صدورهم وفرضت عليهم قيودا أقسى من قيود الاستعمار القديم .. نعود الى موضوعنا وهو الحديث عن نشاطهم فى تركيا . حاولت روسيا اضرام نار الحركة الشيوعية داخل تركيا ، فكلفت عملاءها بتأسيس الحزب الشيوعى التركى، وقدمت لهم مساعدة مالية كبيرة ، غير أنهم اصطدموا بالحقيقة التى غابت

عن أعينهم ، وهى أن الفلاحين الأتراك محافظون ، يتمسكون بالتقاليد الاسلامية تمسكا لا يسمح لهم بالتجاوب مع شعارات الثورة الاشتراكية المستوردة من موسكو .

● وماذا كان رد الفعل عند الشيوعيين ؟ .

— لم تتراجع روسيا أمام هذه العقبة ، فهى تحاول بث دعايتها وتتحين الفرصة لتحويل تركيا الى دولة ماركسية ، ولولا دخول تركيا فى حلف شمال الأطلسى اشهدت البلاد تحركات أوسع لعملاء الماركسية الالحادية .

● أراك تؤكد مرارا على الحاد الماركسيين ، بينما أسمع نغمات اليساريين فى العالم الاسلامى تميل الى الاعتراف بالدين ، ويحرصون على الظهور بمظهر المتدينين ، فهلا أتيت لى بدليل شاف فى هذه المسألة ؟

— سأذكر لك دليلا يبين لك كذب ادعائهم بانهم لا يحاربون الاسلام .. ولكن فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ح) وعدتنى فى الأسبوع الماضى بالحديث عن دليل يبين كذب ادعاء اليساريين فى العالم الاسلامى بأن الماركسية لا تعادى الاسلام .

● ولكن اذا ذكرت لى كتابا شيوعيا أو تصريحا من مسئول ماركسى .. فأرجو أن يكون حديث العهد ، حتى لا نترك لهم ثغرة للتعليل بأن ذلك كان طابع السياسة القديمة ؟

— سوف أذكر لك كتابا صدر فى عام ١٩٦٨ وأظن هذا التاريخ حديث العهد بالنسبة لما وصلت اليه علاقة بعض الأقطار الاسلامية بالاتحاد السوفييتى .

● نعم هو ذلك ، فهو تاريخ لاحق لظهور الاتحاد السوفييتى فى الشرق كمؤيد للحق العربى فى النزاع مع اسرائيل .

— فاليك خبر هذا الكتاب وما جاء فيه : نشرت الجمعية الاتحادية لنشر العلوم السياسية والفنية فى موسكو فى عام ١٩٦٨ كتيبا بقلم : كليموفيتش .. تحت عنوان « الاسلام نشوءه ومستقبله » . يقول

فيه مؤلفه : « ان شـــعوب الاتحاد السوفييتى العائشين مع بعضهم بمودة وأخوة ، تغلبوا على التأخر الاقتصادى والثقافى الذى كان مضروبا عليهم فى المـــاضى ، وأحرزوا تقدما اقتصاديا لم يسبق له مثيل ، وثقافة زاهرة شأن البلاد الاشتراكية .

وقد تغير أيضا المظهر الأدبى للشعب السوفييتى فأصبحت تعاليم ماركس ولينين العظيمة الخاصة بطبقة العمال أساسا لا ينقض لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية .. ولكن لا يمكن الانكار بانه لا يزال راسخا فى ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالى الذى لا يلائم المظهر التقدمى للشعب السوفييتى المستند على العلم والاختبار . ان محاربة هـــذه البقايا التى لا تختص بطبقة معينة من الشعب فى بلادنا ، هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ، ولها أهمية عظمى فى وقت تتحول فيه تدريجيا من الاشتراكية الى الشيوعية ومن ضمن هـــذه البقايا الخرافات الدينية المخالفة للعلوم » ..

● هل تسمح لى بابداء بعض الملاحظات على هـــذا النص ؟ .

— تفضـــل !

● أولا : يدعى كليموفيتش أنهم تقدموا فى ظل مبادىء ماركس ، لكن الواقع يؤكد أن كل دولة تعتنق هـــذه المبادىء تجنى على ازدهارها الاقتصادى ، اذ ينحدر مستوى المعيشة انحدارا أكثر من ذى قبل ، وما لنا نذهب بعيدا والاتحاد السوفييتى الآن يعيش على القمح الذى تقدمه له أمريكا ، على الرغم من المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية التى يملكها .

ثانيا : يعترف مؤلف الكتاب بأن محاربة الدين من المبادىء الأساسية فى النظام الشيوعى ، وهى أيضا من الأمور التى لا تختص بها طبقـــة دون أخرى ، فالكل مطالب بمحاربة هـــذه البقايا ، كما يسمونه .

ثالثا : يدعى أن الدين يناقض العلوم ، وهـــذه دعوى خلت من الروح العلمية ، لأن العقيدة الصحيحة هى من أكبر الحوافز التى تدفع

الانســـان الى البحث العلمى ، لأنه يرى أنه بعمله هـــذا يخدم اخوته فى العقيدة ، ويسهل عليهم ـــ باختراعاته ـــ سبل العيش ، فيكون بذلك قد طبق روح التعاليم الدينية •

أما الملاحظة الرابعة ـــ فهى استفسار : لقد ذكرت فى مبدأ حديثك عن هـــذا الكتاب أنك ستأتى بدليل واضح يبين محاربة الماركسيين للدين الاســـلامى ، ولكن ما ذكرته يتعلق بالدين عموما •

ـــ لو صبرت لحظة لجاءك النص الدامغ لهم ، فمؤلف الكتاب يعطيك الدليل المطلوب بعد النص الذى ذكرته مباشرة ، فاسمع •• يقول مؤلف الكتاب : « ويمثل الدين الاســـلامى احدى هـــذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من ســـكان جمهوريات آســـيا الوسطى فى القوقاز والقفقاز ، وتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك فى بعض مناطق الجمهوريات السوفييتية الفيدرالية الاشتراكية الروسية • وينتشر هـــذا الدين فى الخارج ، وعلى الأخص فى عـــدد من البلاد الآسيوية والافريقية » •

● هـــذا دليل واضح جـــدا •

ـــ هناك ما هو أوضح ستسمعه فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

***

(ط) نواصل حديثنا اليوم عما قاله « كليموفينتش » الشيوعى عن الاســـلام ، لأن كلامه يعتبر حجة ضد الشيوعيين الذين يحاولون خداع المسلمين بادعائهم أن الشيوعية لا تحارب الاسلام •

● وماذا قال بعد الذى ذكرته فى الحديث السابق ؟ •

ـــ لقد هاجم القرآن والسنة اذ قال عنهما : « يعتبر القرآن والسنة والشريعة كتب الاســـلام المقدسة ، وقد ألفت هـــذه الكتب فى القرون الوسطى فى زمن ســـيادة الاقطاع ، وتبرز هـــذه المؤلفات الجو الطبقى ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هـــذه المؤلفات الدليل الوحيد على المـــاضى الأليم ، اذ لا تزال مبادئها تطبق كقوانين فى البلاد التى تتخذ الاســـلام دينها الرسمى •• » •

● ليس هناك أوضح من هذا على أن الشيوعية ضد الاسلام !

ـ بل هناك ما هو أخطر من هـذا ، انه يصرح بأن الشيوعيين فى العالم الاسلامى يعارضون القرآن الكريم حيث يقول : « وقد اختلف التقدميون الشرقيون فى آرائهم مع تعاليم القرآن » ..

ثم يرمى بالتأخر كل من يتمسك بالتعاليم الدينية حيث يقـول : « ويجب الملاحظة هنا بأن أى دفاع عن الأفكار الدينية ليس الا مجهودا لمعاضدة التأخر الاجتماعى ، الذى أصبح ـ أو على وشك أن يصبح ـ من ذكريات الماضى » . ثم أعلن صراحة الدعوة الى الكفر بالله حيث قال : « ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة بأن الاعتقاد بالله له قيمة فى الحياة الاجتماعية ، فان لينين قد أوضح البيان الحقيقى لهذه الفكرة فقال : « ان فكرة وجود الله كان مفعولها دائما اخماد الحس الاجتماعى ، وتبديل شىء حى بشىء ميت ، وما هى الا عبودية من أسوأ الأنواع ، ولم تربط فكرة الله الفرد بالمجتمـع ، بل قيدت الطبقـات المظلومة بالاعتقـاد بألوهية الظالمين » ..

● ماذا كان هدفه من الهجوم على الاسلام بهذه الطريقة التى لا تتفق مع أبسط قواعد البحث العلمى ؟ .

ـ يعتبر الشيوعيون أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يقف حجر عثرة أمام انتشار مبادئهم ، ولهذا لا يألون جهدا فى الهجوم عليه ومحاربته بكل الطرق والوسائل ، وقد أعرب كليموفيتش عن شـكوى الشيوعيين من عنف معارضة الاسـلام لهم فقال : « ويستنتج من دروس ظهور تاريخ الاسـلام وماهيته الاجتماعية ، بأنه عبارة عن فكرة محافظة تعارض نشر المبادىء السوفييتية الحيوية فى العالم ، أى الماركسية اللينينية ، ويمكن ارجاع ذلك الى جميع عقائد وطقوس الاسلام ، وأعياده العديدة ، وصيامه ، والزيارة التى يقوم بها المسلمون للأماكن المقدسة وغيرها من العبادات والتقاليد الاسـلامية واعتقاد المسلمين بأن الله هو الذى يضمن برحمته حياة هادئة ومرفهة للبشر ، ولا أحد غيره » .

● والسؤال الذى أطرحه الآن هو : هل قصد بهـذا الكتاب التأثير على الشباب الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ؟ ..

ـ لا .. فقد قصد به محاولة نشر الالحاد فى البلاد الاسـلامية بين الشبان الذين وقعوا فريسة الدعاية الشيوعية التى أوهمته فى بادىء الأمر أن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، حتى اذا ما انخرط فى التنظيم واستولت الدعاية البراقة على مشاعره أعطيت له هذه الجرعة لتفصله كلية عن تقاليده ، وتدمع به الى دوامة الماركسية ، وليس من السهل عليـه التراجع ، كما أنه ليس من اليسـير على نفسه الكفر بالماركسـية اذا أظهرت له الأيام أن واقع تطبيقها يخالف ما جذبه اليها من شعارات .

● ما هو الدافع الذى جعلك تقرر أن الكتاب ليس موجهـا الى الشباب المسلم الذى يعيش داخل حدود الاتحاد السوفييتى ؟

ـ سأحدثك عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ى) سألتنى فى الأسبوع الماضى عن الدافع الذى جعلنى أقرر أن الكتاب الذى كتبه « كليموفيتش » عن الاسـلام ، لم يكن المقصود به الشباب المسلم الذى يعيش فى الاتحاد السوفييتى .

● نعم ..

ـ فلتعلم أنه قد تم ابعاد الشـباب فى الاتحاد السوفييتى عن الدين كلية ، فأصبح ملحدا بلا استثناء .

● هل لديك دليل على هـذا ؟

ـ عندى الدليل الواضح ، وعلى لسان أحد الشيوعيين الذين تربوا على الأيديولوجية الماركسية ، ورضعوها ممزوجة بلبن أمهاتهم ، ألا وهو ليونهارد الألمـانى ، فقد تحدث فى كتابه : « حقائق عن نظـام الحكم الشيوعى » عن التنظيمات التى التحق بهـا أثناء وجوده فى الاتحاد السوفييتى فقال : « كان التنظيم الثالث الذى كنت عضوا فيه ـ كما كان ينتمى اليه كل طلبة المعهد الذى كنت أدرس فيه ـ يسمى « اتحاد الملحدين المناضلين » والحقيقة أن هـذا التنظيم كان قد فقد أهميته كلية ، أصبح لا لزوم له ، فقد كانت مهمة هـذا التنظيم بالنسبة لنا

نحن الشباب ، لا مكان لها من الناحية العملية ، لأننا تربينا دون أن نتلقى درسا دينيا واحدا ، فعقولنا خاوية من هـذا الجانب ، وأقل ما يتصور أن مهمة هـذا الاتحاد لم يعد لها وجود • فاننى لم أقابل فى مدى العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى انسانا واحدا من جيلى ليس ملحـدا •

● اذا كان كل شباب الاتحاد السوفييتى ملحـدا ، فمن المقصود بهـذا الكتاب ؟

— المقصود به هو شباب العالم الاسلامى • فقد ترجم هـذا الكتاب الى اللغة العربية ، وأظن أنك لاحظت من النصوص التى التزمت بنقلها حرفيا أن ترجمته ضعيفة مما يدل على أن المترجم اما أن يكون من غير أبناء العربية ، أو من العرب الذين لم يبلغوا درجة من الثقافة تؤهلهم لهذا العمل على الوجـه الأكمل •

● وما الذى منعهم من اختيار الأكفاء للقيام بهذا العمل ؟ •

— يبدو أن ذلك لم يتيسر لهم ، لأن غالبية من يؤمنون بالماركسية من متوسطى الثقافة •

● وكيف يوزعونه على شباب العالم الاسـلامى ؟ •

— عن طريق أعوانهم فى البلاد الاسلامية ، فأنا شخصيا ، وجدت هـذا الكتاب فى يد طالب فى جامعة أحمدو بللو بنيجيريا ، ولما سألته عن مصـدره ، أجاب بأنه يوزع فى العاصمة لاجوس ، وقد حصل عليـه من أحـد زملائه •

● ألاحظ أن مؤلف الكتاب انطلق فى هجومه على الاسـلام من مبادىء اتخذتها الشيوعية وسـيلة لجذب الشباب الى صفوفها ، وهى : التقدمية ، والعدالة الاجتماعية — أو الغاء الطبقات كما يسمونها — والحرية والوعد بغد أفضل — أى الوعد بجنة على هذه الأرض — ، فهلا بينت لى خداعها فى هذه الادعاءات ، لأن ذلك سوف يصور للسامع ما معنى التقدم ، أو ما هى الحرية ، وموقف الاسـلام منها ، وبذلك لا ينخدع

بهذه الشعارات البراقة التى مثلها كمثل سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شـيئا .

ـ سوف أبين ذلك بعـد أن أعطيك صورة مختصرة عن نشـاط الشيوعيين فى المنطقة العربية ، وموعدنا فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ك) اتفقنا فى الأسبوع الماضى على أن نتحدث اليوم عن نشـاط الشيوعيين فى المنطقة العربية .. أليس كذلك ؟ .

● بلى !

ـ اذن فلتعلم أن موسـكو لعبت دورا نشطا فى البلاد العربية ، اذ استغلت الحركات الوطنية التى هبت فى المنطقة للمطالبة بالاستقلال ، فسعت الى اقامة ترابط بينها وبين الحركات الشيوعية ، وأعطت الاشارة لعملائها الشيوعيين من مواطنى تلك البلاد بأن يتحركوا بحرية ودون توقف ، فليست هنـاك مواقف دوليـة تجبرهم ـ كما هو الحال مع السلطة المعترف بها دوليا ـ على الحد من نشاطهم ، فهم ليسوا حكومات أو منظمات دولية ملتزمة بقانون وقواعد دولية معينة .

تحرك الشيوعيون فى شـمال افريقيا ، ونجحوا فى اجتذاب بعض المسلمين اليهم ، وكانوا فى دعوتهم لهذا الشباب يتسترون وراء الشعارات القومية ، لأنهم يعلمون أنهم لو أفصحوا عن أنفسهم لنفر منهم الناس نظرا لمـا يعرفونه عنهم من انكار للدين ، كذلك استغل السوفييت الوضع فى فلسطين ، فحاولوا كسب أتباع لهم فى صفوف العرب معتقدين أن الفلاح العربى الفقير حقلا مناسبا لبذر بذور الاشتراكية ، فتصوروا أنه انسـان يمكن اقناعه بتعاليم الشيوعية ، لم يكن هـذا سوى تخيلات فقط ، فالواقع أن عملاء موسكو لم يصادفوا آذانا صاغية بين المسلمين .. اللهم الا حفنة قليلة لا وزن لها ، لأن العرب يتمسكون بدينهم ويرتبطون بتعاليم الاسلام ، ويتصدون لكل اغراءات موسكو ، وكان ذلك هو الصـخرة التى تحطمت عليهـا محاولات الشـيوعيين للنفـوذ الى المجتمع الاسـلامى .

غير أنه عندما ازدادت حدة النزاع بين العرب واليهود ، بدا لموسكو أن الوقت قد حان لتنظيم أتباعها فى جناحين متباعدين ، أحدهما يتخذ طريقه بين اليهود ، والآخر بين العرب ، وكانت شعارات الجناح اليهودى الاشتراكية ، أما الشعارات فى الجناح العربى فهى التحرر الوطنى •

وعندما ألغى الانتداب البريطانى ، وطرحت المسألة على هيئة الأمم المتحدة ظنت موسكو أن الأمل فى قيام الاشتراكية فى الدولة اليهودية الجديدة ، أقرب الى التحقيق منه فى دولة عربية فى فلسطين ، فانحازت فى المناقشات الى جانب اسرائيل ، وهاجم مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة — وكان يومئذ « أندريه جروميكو » وزير خارجيتها الحالى — العرب بألفاظ يعف لسان رجل الشارع العادى عن التلفظ بها ، فضلا عن مندوب دولة كبرى فى هيئة دولية •

● يفهم من كلامك أن منهج الشيوعيين يتلخص فى التغلغل فى صفوف الوطنيين المنادين بالاستقلال ، وتقديم المساعدة لهم ، ثم محاولة السيطرة عليهم ، والقفز الى مناصب الحكم بعد الاستقلال ؟ •

— بالضبط •• هذا هو أسلوبهم فى كل مكان : فى افريقيا ، وفى آسيا ، وفى أمريكا اللاتينية ، يتظاهر أتباعهم بالوطنية ، ثم بالحصول على مساعدة من موسكو للتخلص من الاستعمار ، فاذا ما حان الوقت ، تسلطوا ، وفرضوا قيودا أقسى من قيود الاستعمار القديم •• ونكتفى بهذا القدر اليوم ، فالى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ل) لا أريد الاسترسال معك اليوم فى الحديث عن نشاط الشيوعيين وتحركاتهم بالشرح والتحليل داخل كل قطر عربى ، لأنه تطويل يؤخرنا عن الوصول الى الحديث عن مفهوم التقدم عندهم ، وحقيقة الموقف الاسلامى بالنسبة للتقدم •

● معنى ذلك أننا سنترك هذا الموضوع جانبا ؟

— لا •• ليس هذا غرضى •• وانما أريد بيان الطابع المشترك

لنشاطهم فى جميع الأقطار ، بل انك ستلمح من خلال هذا أنه أيضا هو المطبق فى كل افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

● وما هو هذا الطابع ؟ .

— كانت المنطقة العربية — شأنها شأن كل البلاد والأقطار التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار — مسرحا لحركات تحررية على مدى المائة سنة الماضية ، واتخذت هذه الحركات طابع القومية شعارا لها ، تقليدا لما حدث فى أوروبا فى عصر القوميات ، وتجنبا للوقوع فى صراع دينى قد يعيق مسيرة التحرك نحو التخلص من الاستعمار الذى كان يتعقب كل انتفاضة دينية بطريقة أكثر شراسة ودهاء من أسلوب قمعه للحركات القومية ، لأنه كان يرى أن زعماء الحركات القومية أقرب اليه من زعماء الاصلاح الدينى ، وأن كثيرا من المفكرين القوميين يميلون الى تطبيق النظم الغربية فى مجالات السياسة والتعليم والقضاء ، أما رجال الدين فيرفضون كل ما هو عربى رفضا باتا .

وعندما حصلت البلاد العربية على نوع من الاستقلال ، مكنها من المشاركة فى تسيير شئونها ، أتيح لحركات الاصلاح الدينى فرصة الظهور على مسرح الأحداث ، فتكونت الجمعيات الدينية ذات الطابع السياسى ، وكان من الطبيعى أن تخوض صراعا مع الحركات القومية التى كانت قد نمت ونضجت فى ذلك الوقت ، كذلك اصطدمت أيضا مع أصحاب الاتجاه اليسارى الذين ساعدتهم ظروف بعض الأقطار على الظهور على المسرح السياسى .

● وماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟ .

— ساعدت الظروف التى مرت بها المنطقة على تمكين الاتجاه اليسارى بمساعدة روسيا التى ارتبطت بها بعض أنظمة الحكم عن طريق تقديم المساعدات ، فاستغل عملاء الماركسية هذه الظروف وبدأوا يتغلغلون فى طبقات المجتمع عن طريق السيطرة على وسائل الاعلام ، ولكنهم لم يصادفوا نجاحا الا فى مجال واحد .

● وما هـو ؟ •

— ضرب الحركات الدينية ، وساعدهم على ذلك عدم دراية القائمين على الحـركات الدينيـة بالمناورات السياسية ، فوقعوا فى أول شرك نصب لهم •

● ألم تكن الساحة خالية للشيوعيين بعد القضـاء على المتطوعين فى الحركات الدينية ؟

— نعم •• ولكنهم لم يستطيعوا كسب الجماهير ، اللهم الا حفنة قليلة فى الأوساط العمالية ، وبين شباب الجامعات •

● وما السبب فى هـذا ؟ •

— السبب يكمن — كما ذكرت سابقا — فى أن المسلمين يرفضون الشيوعية ، لأنها تحارب الاسـلام ، وفى أن تجربة الأقطار التى طبقت بعض المبادىء الماركسية كانت قاسية وقد أدرك هـذا كثير من شـعوب العالم اليوم ، فحيثما حلت الشيوعية تدهور الاقتصـاد وانخفض مسـتوى المعيشة •

● أظن أن هـذا كاف عن تاريخ الشيوعية فى العالم الاسلامى ، فلنتركها الآن وان كنا سنعود الى بيان الخداع فى شعاراتها فيمـا بعـد ، ولتحدثنى عن أهـم التيارات الفـكرية التى تجتاح العـالم الاسـلامى اليوم ••

— سأحدثك عنها فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(م) وعدتك فى الأسبوع المـاضى بالحديث عن أهـم التيارات الفكرية ، التى تجتاح العالم الاسلامى ، فاعلم أنهما تياران متطرفان :

أحدهما : علمانى وينقسم الى قسـمين : علمانى متطرف ، ويمثله الشيوعيون ، وعلمانى معتدل ، وهو الطابع المميز لنظـام الحـكم والمجتمع فى العالم الغربى •

● وهل هناك خلاف بين الاثنين ؟

— نعم •• فالعلمانى المتطرف لا يعترف بالدين بل ينكره ويحاربه ، أما المعتدل فيعترف بالدين ولكنه يحدد مجاله فى الكنيسة وفى دائرة التصرف الشخصى ، ومن هنا فكلاهما — المعتدل والمتطرف — يدعو الى بناء الحيـــاة على أسس علمانية متحررة من كل قيود التقاليد والعادات الاجتماعية القديمة ، لأنها فى رأى أصحاب التيار العلمانى — بقسميه — من أكبر عوائق التقدم والانطلاق نحو بناء حضارة تســاعد المجتمعات المتخلفة على اللحاق بركب التقدم الذى تخلف عنه قرونا •

● وما هو التيار الآخر ؟

— التيار الآخر الذى يقابل التيار العلمانى فى المجتمعات الاسلامية هو التيار الدينى وهو يعارض كل ما يتصل بالتقدم الحضارى ، فأصحابه يرون أن مظاهر الحضارة فى المجتمع ليست الا فسادا فى الأخلاق ، وتفككا فى الأسرة وتوهينا للعلاقات الاجتماعية ، فالفرد فى المجتمع الحضارى الحديث يعيش لنفسه ، وينشد المنفعة الحسية لذاته ، لا يمنعه عنها دين ، ولا تحرمها عليــه أخلاق ، فهو حر يفعل بنفسه ما يشـــاء فى اطار القوانين التى سنها نظام تنكر للآداب والفضيلة التى دعت اليها الأديان وصانها المجتمع بتقاليده القديمة ، ومن أجل هذا يرفض رجال الدين الحضـــارة حتى لا تفســد الأخلاق وتمحــو الدين من حيـــاة المجتمع •

● اذن •• يرفض كل جانب ما يراه الآخر أساسا للحياة فى العصر الحديث ، فالعلمانيون يرفضون الدين أساسا للحيـــاة فى المجتمع ، ورجال الدين يعارضون الحضارة لأنها تفســد الأخلاق وتقضى على الفضـــيلة ؟ •

— نعم •• ولهذا يهاجم العلمانيون رجال الدين ، ويرجعون سبب التخلف الى آرائهم التى عاقت حركة التقدم الحضارى • ورجال الدين يرمون أصحاب التيار العلمانى بأنهم يدعون الى الفساد والفوضى الأخلاقية فى المجتمع •

● وهل من سبيل الى جمعها حول مبادىء تحقق الأهداف الأصيلة لدى كل منهما ، أى تهيئة الظروف لبنـــاء حضارة ، مع المحافظة على الأخلاق والتقاليد الدينية ؟ •

— لن يجتمعا مادام كل فريق ينظر الى آراء الآخر نظرة ارتياب وشك دون أن يمحصها ويقيمها ليصل الى المبادىء الأساسية فيهـا ويقارنها بما عنده من أصول ومبادىء •

ولن تهـدأ نار العـداوة المتأججة بينهما ، مادام هنـاك من يمدها بالوقود •

● ماذا تقصد من هـذا ؟

— هناك من يساعد على توسيع الشقة بين التيارين •

● بين لى ذلك ؟

— سأبين لك ذلك فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ن) طلبت منى فى الأسبوع الماضى أن أبين لك المصادر التى تساعد على توسيع الخلاف بين أصحاب التيار العلمانى ورجال الدين ••

● نعـــم !

— فاعلم أن هنـاك مصدران يساعدان على هـذا ، أحدهما من خارج الأقطار الاســلامية ، ويمثله الكتاب المغربيون المهتمون بشئون المناطق الاســلامية ، والذين يكتبون عن الاسلام • فهؤلاء يغرسون فى نفوس العلمانيين أن الاسلام هو العقبة فى طريق التقدم الحضارى ، اذ يربطون بينه وبين ما تعانيه المجتمعات الاســلامية من تخلف ، ويوهمونهم أن الاسلام لن يستطيع التغلب على المشاكل الحضارية التى تواجهه اذا ما نحا المسلمون نحو حياة حضارية •

أما المصدر الآخر فهو من داخل المجتمعات الاســلامية ، ويمثله عشــاق تقليد ظواهر الحيــاة الأوروبية فى مجال الحرية الشخصية ، فيدفعون رجال الدين بسلوكهم هــذا الى المعارضة والتصدى لكل ما يأتى من الغرب ، ورفضه رفضا مطلقا دون تمييز بين ما يصلح وما يضر •

● وماذا كانت النتيجة ؟

— أوحى هـذا الوضع ، أو على الأقل زرع الشك فى قلوب كثير من المسلمين — خاصة من يتولون مراكز قيادية فى الدول الاسلامية — بأن الاسلام يرفض الحضارة الغربية وينكرها ، لأن ما فيها يهدد وجوده وينقض تعاليمه فى المجتمع ، أو يعجزه عن التغلب على ما تخلقه هـذه الحضارة من مشاكل المسلم الذى يتمسك بتعاليمه الدينية ، ومن ثم تتنازعه رغبتان : رغبة الاستمتاع بما أنتجته الحضارة الحديثة ، ورغبة التمسك بتعاليم دينه الذى يستولى على مشاعره ويمتلك عواطفه • وبين الشد الى هـذا ، والجذب الى ذاك ، يسلك طريقا لا يقره دين ، ولا يتفق مع هدف الحضارة •

● كيف كان ذلك ؟

— اذ يصبح الدين عنده عبادة جافة ، لا روح فيها • وان دبت فيه — حينا — مشاعر دينية ، فليست الا ثورة عاطفية ، وحماسا وقتيا ، كما أن سلوكه الحضارى يبدو ممسوخا ، فهو يقتفى مظاهر الحضارة السلبية ، ويجرى وراء مخلفاتها الفرعية التى تدمر الفرد أكثر مما تصلحه، وتهدم كيان المجتمع ، بدل أن تساعد على تقويته وتماسكه •

● وماذا ترى أنت ازاء هـذا الوضع ؟

— أرى أن حقيقة موقف الاسلام من التقدم الحضارى ، لابد أن توضح ، حتى لا تبلبل الأفكار بين أوروبيين مغرضين يشوهون وجه الاسلام ، ومسلمين غير فاهمين يتخبطون بين هـذا وذاك •

● وما هو موقف الاسلام من التقدم الحضارى ؟

— اعلم أن التقدم نوعان : تقدم مادى •• وهو القائم على التفكير والعلم • والحضارة المادية قوامها العلم فى منهجه وتجاربه ومعامله ومصانعه •• الخ • ولم يحرم الاسلام العلم بل دعا اليه وحث عليه • فقال : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** »[1] ••

---

(١) يونس : ١٠١

وليس المطلوب البحلقة بالعين ، ولكن البحث والتجربة للوصول الى أسرار مخلوقات الله .

● اذن .. فتعلم التكنولوجيا الحديثة مطلوب اسلاميا ؟ .

ـ نعم .. بل هو واجب على الأمة الاسلامية ، كى تبين قدرة الله فى هـذا العالم المخلوق .

● وما هو النوع الثانى من التقدم ؟

ـ سأحدثك عنه فى الأسبوع القادم ان شاء الله ..

* * *

(س) أين وقفنا فى الأسبوع الماضى ؟ .

● وقفنا عند الحديث عن النوع الثانى من التقدم .

ـ اذن .. فاعلم أن النوع الثانى من التقدم هو التقدم البشرى ، وهو وصول الانسان فى الخصائص الفكرية ، والوجدانية ، والسلوكية الى مرحلة أكثر تقدما من ذى قبل ، والاسلام كما يصوره القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة عبارة عن جملة من المبادىء ، لو اعتقدها الانسان ، وآمن بها ، وطبقها فى حياته تطبيقا عمليا واضحا ، لسار فى نموه حتى المرحلة الأخيرة من الكمال الانسانى ، وهى مرحلة التقدم . ولما كان التقدم المادى ـ الذى تحدثنا عنه فى الأسبوع الماضى ـ يحتاج الى ضوابط تضبط سلوكه وتكبح جماحه ، فلابد أن يصاحبه تقدم بشرى ، وهو ما عنى به الاسلام فى تعاليمه وأحكامه .

ولما كان الاسلام غد أباح التقدم المادى ـ بل دعا اليه ـ وأرسى قواعد التقدم البشرى ، فهو بهذا لا يعارض الحضارة الا فى جوانبها السلبية المدمرة لحياة الفرد والأمة .

● هل يعرف المتحمسون للمبادىء العلمانية فى العالم الاسلامى هـذا ؟ .

ـ لا .. لأنهم لو عرفوه لأدركوا أن ما يقرأونه فى كتب المغربيين من تعارض بين التمسك بالاسلام ، ومباشرة الحياة الحضارية هو رأى خاطىء ، لا يصدر الا من جاهل بالتعاليم الاسلامية ، أو عدو للاسلام

يريد أن يتنكر المسلمون لدينهم عن طريق الايحاء لهم بأنه لا يصلح للحياة العصرية •

● اذا كان الاسلام لا يحرم الحضارة المادية البناءة ، فلماذا يقف بعض علماء الدين ضدها ، ويعارضون وجودها فى المجتمع الاسلامى ؟ •

— لأنهم لم يدرسوا الفكر الحديث ، لأنهم لو درسوه لأدركوا أن للحضارة ناحيتين : أولاهما : ايجابية بناءة ، تخدم الانسان فى حياته وتساعده فى التغلب على مشاكل العصر • وثانيتهما : مدمرة للأخلاق ، ففيها ضياع الفرد وانهيار المجتمع •

لو عقلوا هذا ، لأدركوا وميزوا بين ما هو نافع فيقبلوه ، وما هو ضار فيرفضوه ، وبذلك يقطعون الطريق على أولئك الذين يأخذون رفضهم الكلى للحضارة دليلا على رفض الاسلام للتقدم ، لأن رفض رجال الدين المطلق للحضارة أدى الى ظهور جبهتين اتخذتا هذا الرفض سلاحا تحارب به الاسلام :

الجبهة الأولى : هم المفكرون الغربيون الذين يكتبون عن الاسلام ، فهم يستندون الى موقف رجال الدين من قبول الحضارة الحديثة فى بيان أن الاسلام يرفض التقدم ، ومن الطبيعى أن يكون لهذا الرأى أثر كبير فى توجيه العلمانيين فى العالم الاسلامى •

والجبهة الثانية : بعض القادة فى العالم الاسلامى ، فهم ينهجون فى الدولة منهجا علمانيا ، لأنهم رأوا أن موقف رجال الدين من المتطلبات العصرية فى الدولة يعوق حركة التقدم ، ويمنع الدولة من الحركة فى مجال التشييد الحضارى •

● وماذا يجب عمله لمواجهة هذين الجبهتين : أى لتصحيح أخطاء مفاهيم المفكرين الغربيين عن الاسلام ، ولاقناع القادة أن الاسلام لا يعارض التقدم ، مادام ملتزما بالخط الأخلاقى ؟ •

— سنتحدث عن هذا فى الأسبوع القادم ان شاء الله •

* * *

(ع) وعدتك فى الأسبوع الماضى بالحديث عن تصحيح المفاهيم عند الجبهتين اللتين ظهرتا نتيجة رفض رجال الدين للحضارة الحديثة ، ولكن قبل الشروع فى هـذا الموضوع أحب أن ألقى الضوء على ما يدعيه الشيوعيون بأنهم تقدميون ، اذ يردد دعاتهم هـذا الشعار فى العـالم الاسـلامى ، فيدعون أنهم يحملون لواء التقدمية ، ويرمون كـل من يعارضهم بالتـأخر والتخلف ، وقـد تأثر كثير من شـبابنا بهـذا الادعاء الكاذب .

● وكيف نبين لهم كذب هـذا الادعاء ؟

— يتضح ذلك لهم اذا درسوا الظروف التى نشأ فيها ماركس ، فسوف يتضح لهم أنها لم تعد موجودة ، وبذلك يكون شعارهم متخلفا ، أى مرتبطا بظروف عصر مضى وانتهى فاذا ما تمسكوا به يصبحون متخلفين عن ركب التقـدم .

● هل يمكن أن تبين ذلك ؟

— نعم : اعلم أن الظروف التى دفعت ماركس الى التفكير فى هذا المذهب هى وضع أوروبا الغربية الاقتصـادية فى القرن التاسع عشر الميلادى . وهو يتلخص فى :

أولا : تمركز الأموال فى يد ثلة من أصحاب رؤوس الأموال الذين ساعدهم تقدم الحضارة المادية على الاستمتاع بأموالهم بشتى الأساليب .

ثانيا : نقص أجور العمال وفقد الرعاية الاجتماعية والصحية لهم ، فعاشوا فى جهل مطبق ، تفتك بهم الأمراض جسمانيا ويهلكهم الحرمان وضيق العيش نفسيا حين يرون الدنيـا فى بهجتها لدى أصحاب المصانع ويتطلعون الى المـال وهو يسيل بين أيديهم دون أن يحركهم الضمير للضيق والاهمال والشقاء الذى يعيش فيه العمال .

استغل ماركس هـذه الظروف ، فدعا الى اثارة حقد العمال على أصحاب رؤوس الأموال ، وحرض على الاضرابات ، وحث على الانقلاب والاطاحة بأصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة وبالنظام السياسى فى الحكم الذى يحميهم ، ويحمى استغلالهم .

والسؤال هو : هل لا زال وضع المجتمع الأوروبى الذى كان سائدا فى القرن التاسع عشر موجودا الآن ؟

الجواب : لا ! اذن ، فـدعوة ماركس ليست تقـدمية ، بل ربطت بأوضاع كانت فى القرن التاسع عشر وانتهت الآن ، فهى دعوة رجعية .

● أرجو أن توضح هـذه المسألة أكثر من هـذا ؟

— أريد أن أقول : ان التقدم الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع الصناعى فى القرن العشرين — وبالأخص منـذ بداية النصف الثانى منه — قلل كثيرا من الفجوة فى المعيش والمتعة بالحيـاة والنظرة الى الانسـان الذى كانت حالته تختلف كثيرا من عصر ماركس عنها اليوم .

فزيادة الأجور ، والخدمات العامة المتنوعة ، وتحديد ساعات العمل اليومى ، والأسبوعى ، والاجازات السـنوية ، والتأمين ضـد العجز والشيخوخة ، وفرص التعليم فى المراحل المختلفة التى تهيأ لأبناء العمال فى المصانع وغيرها ، تكاد تجعل المصنع شركة بين العامل وصاحبه . وليس بينهما فارق الا أن أحدهما يسـتخدم كل طاقاته فى الادارة ، والثانى يستثمرها فى الانتاج ، فاذا ردد الماركسيون ما كان يدعو اليه ماركس ، فهم يدعون بدعوة مرتبطة بظروف القرن التاسع عشر ، وقد انتهت وحلت محلها ظروف أخرى تختلف عنها كلية . فدعوتهم رجعية ، لأنها تريد أن يرجع العالم الى الوراء حتى يصبح لها مفهوما ، فهى تنادى بحل مشاكل لا وجود لها لأن التطور الصناعى ، والتقدم التكنولوجى قضى عليهـا .

● وكيف قضى التقدم التكنولوجى على المشاكل التى ارتبط بهـا فكر ماركس ؟ .

— ذلك ما سنبينه فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ف) غاب عنك فى الأسبوع الماضى كيفية حل التقدم التكنولوجى المسألة التى دعا ماركس الى حلها .

● طبعا .. فذلك أمر بعيد عن ذهنى !

— أليس شـــقاء العامل من الأسباب التى دعت ماركس الى التفكير فى هـــذا المذهب الذى يسمونه الشيوعية ؟

● نعم ..

— اذن فلتعلم أن التقدم التكنولوجى قد قضى على شـــقاء العامل ، وأراحه من المجهود المضنى الذى كان يبذله فى عمله .

● كيف ذلك ؟

— لقد نقل التقدم التكنولوجى العامل من مرحلة استعمال عضلاته الى مرحلة يستعمل فيها عقله بدل قدميه ، ويستخدم تفكيره وعلمه وفنه ، قبل أن يستخدم يده وساعده .

وقد حلل كاتب ألمـــانى مدى تأثر العمل بالآلية فى الصناعة فى المجتمع التكنولوجى المعاصر . وتساءل :

« هل انتشار الآلية سيزيد فى البطالة فى العمل ، أم سيخلق فرصا أخرى حديثة واسعة فى مجالات الكسب والعمل مما تستلزم حتما زيادة فى عدد الموظفين الفنيين ، وان كانت ستنقص من عدد العمال العضليين» ؟

واذا كانت نتيجة التوسع فى المجال الآلى فى الصناعة والخدمات معا ، هى زيادة الثقافة الفنيـــة لمواطنى المجتمع المعاصر التكنولوجى ، وبالتالى زيادة عدد الموظفين عن العمـــال ، وانكماش الثقافة العمـــالية التقليدية المحدودة ، وبالتالى انكماش عـــدد العمال اليدويين ، فان ذلك ينذر بانتهاء عهـــد النقابات العمالية التى جاء تأسيسها عقب الأزمات المتكررة بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، ومعنى ذلك أن فلســـفة « العمل » التى قامت عليهـــا الفلسفة الماركسية ستنتهى قيمتها كلية ، عند انتشار الآلية فى الصناعة والخدمات فى المجتمع .

ان كارل ماركس قد ربط تفكيره الفلسفى بأوضاع القرن التاسع عشر ، فاذا نودى اليوم فى المجتمعات الماركسية ، أو فى المجتمع الاسلامى بالتقدمية فى نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضا بثورة الطبقة العاملة ، فذلك ينطوى على دعوة الى رجوع التطور الاجتماعى والتكنولوجى ، والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر حتى يمكن أن

ينكشف الظلم فى استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد فى الهوة السحيقة فى وضع كل من العامل ، وصاحب العمل ، فى الحياة ، والشقاء ، والاستمتاع فيها .. وعندئذ فقط يكون لفكر ماركس مكان فى حل ما بين العامل وصاحب العمل من مشاكل ، هى مشاكل الظلم والانحراف فى استثمار المال .

فاذا وصف الماركسيون التمسك بالدين بأنه « رجعية وتخلف » فلا ينطبق هذا الوصف الا على الماركسية ، لأن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ، اذ هو للطبيعة الانسانية بمالها من خصائص ، أينما وجدت ، وفى أى وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف فى السلوك سواء فى المال أو فى العلاقات البشرية ، بينما الفلسفة الماركسية قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر ، والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين .

من أحق بوصف الرجعية ؟ .

أهو الماركسى الذى يدعو الى فلسفة ارتبطت بأوضاع انتهت ، أم المتدين الذى يتمسك بتعاليم تتعلق بتقويم أخلاق الانسان ، والانسان هو هو لم يتغير عن الماضى ، ولن يتبدل فى المستقبل ؟ !

والى لقاء آخر ..

* * *

(ص) حدثتك فى الأسبوعين الماضيين عن خداع الشيوعيين فى ادعائهم بأنهم تقدميون وأن المتدينين رجعيون ، فتبين لك أن فلسفتهم رجعية وتخلف ، لأنها ارتبطت بظروف القرن التاسع عشر ، أما الدين فهو للانسان ، وهو لا يتغير ولا يتبدل ، ولذا فوصفه بالرجعية محض افتراء ، وقلب الحقائق ، فالرجعيون هم الشيوعيون ، والرجعية هى الفلسفة الشيوعية لأنها تنادى بحل مشاكل انتهت وطواها التاريخ .

هـذا ما يتعلق بشـعار التقدمية عند الشيوعيين ، أما المجتمع الرأسمالى فقد اعتنق سياسة مفادها عزل الدين عن الحيـاة العامة ، وحصره فى أروقة المعابد ودهاليز الكنائس ، وقد تأثر بهـذه الدعوة كثير من المسلمين فى المجتمع الاسـلامى ، فنادوا بأن الاسـلام يجب أن يقتصر على المسجد ولا يتعداه الى شـئون الناس وحياتهم العامة • وهـذا أيضا عدم فهم أدى الى قياس مبادىء الاسـلام على تعاليم الكنيسة الغربية •

● أرجو أن توضح هـذه المسألة ، لأن كثيرا من المسلمين يربطون بين ما يحدث فى الغرب من صراع بين الكنيسة والدولة ، وبين ما يطفو على السـطح أحيانا من معارضة رجال الدين الاسـلامى لمـا يطبق فى المجتمع الاسـلامى من شئون سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها •

— اعلم أن معارضة الكنيسـة فى أوروبا ، ومحاولة فصلها عن الشئون الدينية جاء نتيجة لتسلط الكنيسـة ، وفرض سيطرتها على المجتمع ، مدعية أن ذلك حق الهى لها ، وزاعمة أن قرارها الهى لا يقبل المعارضة وبالاضافة الى هـذا أعطت نفسها حق مصادرة كل ما لا يتفق مع رأيها المقدس ، فمنعت التفكير الحر — استنادا الى حقها الالهى — وتصدت لكل ما هو جديد فى المجالات السياسية والاقتصادية فتفاقم النزاع بينها وبين الدولة ، أو بتعبير آخر بين الأمور الدنيوية ذات الصبغة البشرية ، والأوامر الكنسية التى اكتسبت صفة التقديس ، مما دفع بعض المفكرين الى الدعوة بفصل الدين عن الدولة ، وتقسيم السلطة الى مجالين ، فيكون للدولة الشـئون السياسية والاقتصادية والتعليمية والتشريعية بما لا يمس الكنيسة ، ويكون للكنيسة شئون الأسرة فى مراسم الزواج وطقوس الوفاة ، ونظام الرهبنة •

لم توجد هـذه الظروف فى المجتمع الاسـلامى ، فلم يدع رجال الدين أنهم يكونون حكومة الهية ، أو أنهم يصدرون أحكاما منزهة عن الخطأ كما كان يفعل رجال الكنيسة فى أوروبا ، فرجال الدين فى نظر الاسلام بشر ، يخطئون ويصيبون ، والحكومة أيضا انسـانية تخضع للخطـأ

والصواب ، فاذا حدث نزاع بين الطرفين فيجب عليهم أن يعودوا الى القرآن الكريم والسنة النبوية .. يقول الله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** »(٢) ..

فهنا يأمر القرآن الكريم المؤمنين جميعا من أولى الأمر وغيرهم بأربعة مبادىء :

أولا : بأداء الأمانات الى أهلها ، وفى مقدمتها أداء صاحب الولاية العامة أمانة ولايته لمن يولى عليهم ، وبالأخص العمل طبقا لما جاء فى كتاب الله .

ثانيا : بمباشرة العدل فى الحكم والقضاء بين الأطراف المعنية فى الخصومة .

ثالثا : بالطاعة لما لله من قوانين ومبادىء فى صورة أوامر أو نواهى ، أو وصايا ، وطبقا لما جاء فى كتابه ، وفى سنة رسوله قولا وعملا .

رابعا : بالاحتكام الى الله فى القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ من مبادىء وأحكام وتطبيق عملى عند التنازع بينهم وبين أولى الأمر منهم .

ومن هذا يتبين أن الظروف التى دعت المفكرين فى الغرب الى المناداة بفصل الشئون الدينية عن المسائل الدنيوية لم توجد فى المجتمع الاسلامى ، وليس هناك ما يؤدى الى وجودها فى المستقبل ، فدعوى الفصل بين الأمرين لا مجال لها هنا ، وبالتالى ليس هناك ما يدعو الى القول بأن الاسلام يقف عقبة فى سبيل ممارسة الدولة لشئونها ، مادام ذلك لم يصطدم بنص صريح أو رأى مجمع عليه .

---

(٢) النساء : ٥٨ ، ٥٩

لكنا نرى بعض المسلمين — ومن بينهم أفراد من رجال الدين — يعارضون كثيرا من الأمور الحيوية واللازمة للمجتمع بحجة أنها لا تتفق مع الاسلام ، وذلك راجع الى عدم فهمهم للاسلام •

* * *

(ق) سأبين لك اليوم جانبا آخر من خداع الشعارات التى يرفعها الشيوعيون فى العالم الاسلامى ، ألا وهو دعواهم بأن تطبيق الماركسية يؤدى الى الغاء الطبقات ، فتصبح المساواة بين أفراد المجتمع حقيقة واقعة ، فلا ترى فرقا بين غنى وفقير ، وذلك أنهم يدعون أن الفلسفة الماركسية تدعو الى نقل الملكيات الى الدولة ، كى تزول الفوارق بين الأفراد ، فيتساوى الكل فى الانتفاع بالدخل القومى •

وقد جذب هذا الشعار عددا كبيرا من الطبقة العمالية والأوساط الفقيرة فتعاطفوا مع دعاة الماركسية ، أو انضموا اليهم فى البلاد الاسلامية ، الا أن واقع البلاد التى تطبق الماركسية يكشف النقاب عن الخداع فى حمل هذا الشعار ، فالطبقية موجودة فى الاتحاد السوفييتى بصورة أفظع مما هى فى المجتمع الرأسمالى ، فليس لأصحاب الطبقة الدنيا من فرص فى الحياة مثلما لأصحاب الطبقات العليا ، فلا يتساوى أولادهم فى مجال التعليم ، ويتضح لنا هذا من وصف أحد الشيوعيين لحالة الطلبة فى معهد المعلمين العالى فى موسكو ، بعد أن صدر قرار بقطع المنح الدراسية عنهم فيقول :

« رأيت فى تلك الأيام عيونا باكية ، اذ حتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا ، وكان الموقف الدراسى الذى تأثرت به بنوع خاص وداع طالب أحمر الشعر ينحدر من أسرة فقيرة تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهدا فى دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم ، والقيام بالواجبات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرسا لتلاميذ المرحلة المتقدمة فى المدارس ، وكانت تبدو عليه — قبل صدور هذا القرار — علامات السرور كلما تذكر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمله •

ولم يكن هو الطالب الوحيد الذى حيل بينه وبين التعليم بسبب الفقر ، فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد — لأنهم من أسر فقيرة لا تستطيع أن تصرف عليهم — فى ازدياد مستمر ، والحقيقة أنه لم يبق فى المعهد الا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة والضباط والموظفين الكبار » .

ثم بين هـذا الشـيوعى أن تولى الوظائف العليـا فى الاتحاد السوفييتى كان مقصورا على خريجى المعاهد العليـا وبصدور هـذا القرار أصبحت تلقائيا مقصورة على أبناء الطبقة الحاكمة .

استمع اليه حين يقـول :

« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منـذ نهاية العشرينات وثبتت سلطتها بحركة التطهير التى امتدت من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ فأطاحت بالمجموعة القـديمة ، بدأت فى عام ١٩٤٠ فى اتخاذ تطبيق وسـائل احتكار السلطة ، ومنع دخول الطبقات الأخرى لمشاركتها فى الحكم ، وبهـذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقى وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم » .

بلغ الامتياز الطبقى فى المجتمع الشيوعى أقصى ما يتصور العقل وجوده فى أى مجتمع آخر . فبينما ذكرت الأنباء أثناء الحرب العالمية الثانية أن تشرشل كان يعيش أثناء الحرب مثل مواطنيه ، ينقل لنا هـذا الشيوعى صورة أخرى عن حياة الطبقة العليـا فى الاتحاد السوفييتى فيقول : « لم يشعر أعضاء الحزب،ولا كبار موظفى الحكومة،ولا العاملين فى المؤسسات الاقتصادية بنقص فى المواد الغذائية فى بيوتهم فى هـذا الوقت العصيب ، بل كانوا يعيشون كما لو كنا فى حالة السـلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شىء من المحلات المتوارية خلف الكواليس » .

« وبجانب هـذه المحلات المقصورة على الطبقة الممتازة الخاصة » وجدت أيضا أماكن خاصـة للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط ، وأفراد الطبقة المتوسطة « المفضلة » الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقى فى الحـزب لم

يمكنهم من الوصـــول الى المنـــابع التى توزع على الطبقة المتـــازة « الخاصـــة » ..

أما بقية الشعب فكان مجبرا على أن يعيش على أية كيفية .

كذلك ظهرت المعاملة الطبقية فى الاتحاد السوفييتى مع عمـــلاء الماركسية من الدول الأخرى ، فقد تكون ما تسمى بـــ « جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » وعومل أعضاؤها ـــ وهم من جنسيات مختلفة معاملة متفاوتة ـــ : « فقد وزع هؤلاء على أماكن الســـكن ، طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملاتهم بالنسبة للخدمات الأخرى ، فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى ، كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا ، والزعماء الكبار يحصلون ـــ بالاضافة الى الوجبات الثلاثة ـــ على طرد كبير مليء بأصناف الفواكه والحلوى مرسلا الى محل اقامتهم .

أما الباقون من أعضاء الجبهة ، فكانوا يحصلون على ما يحتاجون اليه من أغذية بمقدار ما يأخذه عامل فى بطاقة التموين وبين الحين والآخر يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصـــة » .

كان هذا هو وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .. كل على حسب قيمة ما يقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم الى طبقات فى كل شىء ، فى المســـكن والأكل ، وفى كل ما يتعلق بشئون الحياة ، طبقة تعلو الأخرى ، حتى القمة .

والى اللقاء فى الأسبوع القادم .. لأحدثك عن الطبقية فى البلاد الشيوعية الأخرى ثم عن موقف الاسلام من هـــذه الظاهرة .

* * *

(ر) بينت لك فى الأسبوع الماضى أن الطبقية موجودة فى الاتحاد السوفييتى بأقصى صورها ، وأن الشعب الذى تطبق عليه فلسفة ماركس ، لم يعرف المســـاواة التى ينادى بها دعاة الشيوعية ، بل على العكس من ذلك ، فهو يرى بعينيه التمييز الطبقى قائما على أساس الولاء للحـــزب وليس على أساس ما يقوم به الفرد من عمل ، ولا يقتصر التمييز بين

الطبقات على المجتمع السوفييتى ، بل تراه فى كل دولة قادت روسيا فى تطبيق الشيوعية ، يصف الشيوعى القديم « ليونهارد » التمييز بين طبقات الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية فيقول :

« كان تمييز القياديين وتفضيلهم على الآخرين احدى المساوىء الكبرى ، والسبب الدائم الذى كان يسبب لى المغص السياسى ، فلم أعرف أنا ولا أصدقائى — الذين نشأنا فى الاتحاد السوفييتى — أن هناك شيئا آخر ، ولم نر فى بادىء الأمر غضاضة فى التفضيل المادى لقادة الحزب فى الدولة ، وفى المجالات الاقتصادية .

نعم .. تبين لى قبل ذلك وبالتحديد فى عام ١٩٤٢ — عندما كنت فى كاراجندا — أن من الظلم أن يكون هناك فى زمن الحرب فرق شاسع ، فالجماهير العريضة من العمال — كذلك أيضا كثير من أعضاء الحزب الذين يحتلون الدرجة السفلى فى درجات تصنيف الطبقات فيه — كانوا يعانون من ألم الجوع القاتل ، بينما لا يشعر القياديون بأى نقص فى المواد الغذائية عندهم ، ولكنى أخذت المسألة آنذاك من زاوية أن تفضيل القيادين جاء نتيجة انحراف غير متعمد ، وليس هو طابع النظام الشيوعى ، الى أن دفعتنى المصادفة الى التفكير فى هذه المظاهر ، وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٤٥ عندما كنا فى بداية الحملة الدعائية الكبرى للوحدة ، وحدة الأحزاب الألمانية فى حزب واحد ، هو الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

فقد كنت فى أحد الأيام آتيا من مكتبى ، متجها الى صالة الطعام فى اللجنة المركزية ، فاستوقفنى على السلم رجل متوسط العمر ، ويبدو من حسن مظهره أنه غريب ، قال لى هذا الرجل :

لا تؤاخذنى أيها الرفيق : هل تعمل هنا ،

فقلت له : نعم ! فى قسم الدعاية السياسية .

فقال : هذا ما أريده بالضبط .. واستطرد قائلا : أنا عضو فى الحزب الشيوعى فى ألمانيا الغربية ، جئت الى هنا بناء على دعوة وجهت الى ، وقد تسلمت منذ لحظة « ماركة » للأكل ، ولكنى لا أعرف أين صالة الطعام ؟ .

فقلت له : هـذا يتوقف على نوع الماركة التى معك ، فنظر الى مندهشا ، ثم أطلعنى على نوع « ماركته » لقد كانت واحدة من الطبقة رقم ٣ ، وهو نوع يعطى للعاملين غير المهنيين ، فشرحت له كيفية الوصول الى مكان تناول الطعام •

فقال لى : أخبرنى •• هل يوجد أربعة أنواع من « الماركات » ؟

فقلت له : طبعا يوجد أربعة أنواع مختلفة من «الماركات» تبعا لعمل القيادى ، فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين •

فقال لى : نعم ! ولكن •• أليس الكل رفقاء ؟

فقلت له : طبعا •• أيضا عاملات النظافة والسائقون والحراس ، كل أولئك أعضاء فى الحزب ، انضموا اليه بعد اختيار •

فنظر الى فزعا ثم قال :

« ماركات » مختلفة وطعام مختلف •• ولكن الكل رفقاء !!

ثم أدار ظهره دون أن يتفوه بكلمة وذهب ، وبعد لحظات سمعت صرير الباب الخارجى •• لقد غادر مبنى اللجنة المركزية •

اتجهت الى صـالة الطعام ممعنا التفكير فيما حدث ، فاخترقت الحجرات التى تتناول فيها الطبقتان رقم ٣ و ٤ — وهما من السفليتان — طعامهم ، فاعترانى شـعور بالانقباض عنـدما فتحت باب القسـم الخاص بطبقتنا ••

فهنا — على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء — يتناول العاملون من الطبقة العليا طعامهم المكون من أصناف متعددة •• غريب أنى لـم ألحظ ذلك قبل اليوم قط » !!

ثم يستطرد الشيوعى القديم فى وصف حياة القادة فى « فيلاتهم » الفخمة ، وفى بيان الطبقية فى الامتيازات المـادية التى تقدم للقياديين فى الجهاز الادارى والاقتصادى وللعلماء ، والأخصائيين ، والشعراء ، والفنانين ، ويعلق على ذلك بقوله :

« لم يصدر بيان رسمى اطلاقا ، فاذا تحدث المرء مع « أحد المخلصين اللينينية » حول هذا الموضوع يجيبه ببساطة :

« حماة الدولة ، فالرفقاء ، يكلفون بعمل كبير ، ولذا فمن المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية » .

من الممكن أن يكون هـذا صحيحا ، ولكن ألم يكلف العمـال فى المصانع والمناجم والفلاحون من الطبقة الدنيا الذين لا يحصلون على هـذه « الامتيازات » أيضا بعمل شـاق يؤدونه ببذل كل ما عندهم من طاقة ؟ .

هـذا هو الوضع فى المجتمع الشيوعى .. طبقات بعضها فوق بعض ، لا على أساس قوى الفرد الذاتية ، ولكن طبقا لولائه للحزب ، فالدولة ، وهى عدة أفراد قليلة صادرت الأموال مدعية أنها ستزيل بذلك فوارق الطبقات ، فاذا بها تتحكم فى مصير أفراد الشعب ، تتخم عملاءها بالأموال ، وتترك الآخرين يصارعون البؤس والفقر والحرمان ، بعد أن سلبتهم أموالهم وسدت فى وجوههم طرق تحصيل الرزق .

والى حديث قادم ان شاء الله .. حول أسلوب الاسلام فى معالجة مشـكلات الثروة .

* * *

(ش) بعد ما ببنت لك فى حديثين سابقين أن دعوى الشيوعيين بأن فلسفة ماركس تؤدى الى الغاء الطبقات وتذويب الفوارق بين الناس هى دعوى كاذبة ، فالطبقية البغيضة القائمة على أساس الولاء للحزب ـ وليس على أساس الانتاج للدولة ، وبذل المجهود لبناء الأمة ـ موجودة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى كل البلاد الخاضعة للنظام الشيوعى ، فقد صادر رجال الحكم الأموال ، ونصبوا أنفسـهم عليها يعطون من يشاءون ، ويحرمون من يشاءون ، وبذلك خلقت طبقات فى المجتمع تتمتع بكل المتع المـادية ، وأخرى لا تجد من القوت الا ما يقيم أودها . وقد تفتقده أيضا فتموت جوعا اذا غضب عليها سادة الحكم .. بعد ما ببنت لك هذا أحب أن أوضح لك أسلوب الاسلام فى معالجة مشكلات الثروة .

فقد عالج الاسلام هـذه المشكلة بأسلوب يقضى على الطبقية ، ويحول دون ظهور الحقد الطبقى فى المجتمع ، فالمسلمون أمة واحدة ،

يقول الله تعالى : « **أن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** »[٣] ..

اذ يشعر الأفراد فيها بأنهم جسد واحد ، يتألم كل لما يصيب أخاه من سوء ، يقول النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » ..

ولا يقف الأمر عند الشعور ، بل هو مسئول عن تخفيف الآلام عن أخيه بازالة أسبابه سواء أكانت نفسية أو مادية .

فأزال الاسلام التوتر النفسى الذى قد يحدث لبعض الأفراد ، عندما يفكر فى وضعه الاجتماعى . يقول الله تعالى : « **انما المؤمنون اخوة** »[٤] ..

وقال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** »[٥] ..

ويقول ﷺ : « أوحى الى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد » ..

وقضى على حقد الفقير على الغنى ففرض له نصيبا من ماله . يقول تعالى : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** »[٦] ..

ويقول : « **ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم** »[٧] ..

وتوعد الغنى الذى لا يعطى الفقير حقه من هذا المال . فقال تعالى : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم**

---

(٣) الأنبياء : ٩٢
(٤) الحجرات : ١٠
(٥) الحجرات : ١١
(٦) الحديد : ٧
(٧) المعارج : ١٩ — ٢٥

وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[٨] ..

كما حرم الربا حتى لا يتحكم الأغنياء فى رقاب أصحاب الحاجة ..

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »[٩] ..

ولم يقف الأمر عند هـذا الحد ، بل أراد الاسلام أن يجعل مستوى المعيشة متقاربا بين المسلمين ، فحارب الترف ، يقول الله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين »[١٠] ..

بل ان الترف قد يؤدى الى هلاك المجتمع ، فيقول الله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[١١] ..

فوجوب الزكاة ، وتحريم الاكتناز والترف والربا ، أسس يراد بها رفع مستوى الطبقات الفقيرة ، وخفض مستوى معيشة الأغنياء لتكون الحيـاة سعيدة بتقاربها وتناسقها .

فتحريم الترف يوجه المـال الى انتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحريم كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا يؤدى الى المشاركة فيها ، واذا لم يجد الناس فى الترف لذتهم وجاههم وجدوها فى الاحسان والبر ، واذا لم يجدوا فى الكنز ضمانا لهم ، وجدوه فى المجتمع الاسلامى المتكافل ، الذى لم يهمل أحدا ، ولم يحتقر أحدا ، واذا لم يجدوه فى الربا ، وجدوه فى لذة الكسب والمشـاركة مع اخوانهم الذين يعملون فى أموالهم .

● وهل يمكن أن تسرد لى بعض الأمثلة التى توضح أثر هذه المبادىء فى المجتمع الاسلامى ؟ ..

راجع موقف الاسلام من المـال فى باب « القضايا المعاصرة » تجد ما يبين لك ذلك بوضوح ..

* * *

---

(٨) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ (٩) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩
(١٠) الأعراف : ٣١ (١١) الاسراء : ١٦